Herlock Holmes

شيرلوك هولمز

ARTHUR CONAN DOYLE

آرثر كونان دويل

دراسة في اللون القرمزي

عصير الكتب

دراسة في اللون القرمزي

عصير الكتب
للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- الطبعة الأولى: مايو 2021م
- رقم الإيداع: 2021/7763م
- الترقيم الدولي: 978-977-85810-7-2
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- العنوان: دراسة في اللون القرمزي
- ترجمة: مي أشرف هاشم
- تحرير: أحمد القرملاوي
- تدقيق لغوي: منى عبد الهادي الشريف

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

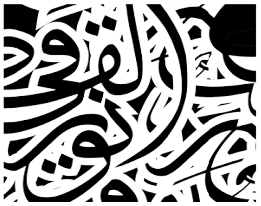

Sherlock Holmes

شيرلوك هولمز

آرثر كونان دويل

ARTHUR CONAN DOYLE

دراسة في اللون القرمزي

عصير الكتب

للنشر و التوزيع

الجزء الأول

(نسخة من مذكرات جون م. واتسون، دكتوراه في الطب، طبيب سابق في الجيش)

الفصل الأول

السيد شيرلوك هولمز

أنهيت دراستي وحصلت على درجة الدكتوراه في الطب من جامعة لندن عام 1878، ثم توجهت إلى نيتلي؛ لاجتياز الدورة المقررة للجراحين في الجيش. بعد أن أتممت دراستي هناك، التحقتُ -كما تجري الأمور- بكتيبة نورثـــت ـامبلاند الخامسة جراحًا مساعدًا. كانت الكتيبة متمركزة في الهند في ذلك الوقت، وقبل تمكني من الانضمام إليها اندلعت الحرب الأفغانية الثانية.

عند هبوطي إلى مومباي علمتُ أن كتيبتي قد تقدمت عبر الممرات، وصارت في عمق بلاد العدو. إلا أنني لحقت بهم مع العديد من الضباط الآخرين الذين كانوا في مثل موقفي، وقد نجحنا في الوصول بأمان إلى (قندهار)، حيث وجدت كتيبتي وبدأت مهامي الجديدة على الفور.

جلبت تلك الحملة العسكرية مراتب الشرف والترقيات للكثيرين، ولكن لم تجلب لي شيئًا سوى الكوارث وسوء الحظ. لقد أُقصيتُ عن كتيبتي وأُلحقتُ بكتيبة البيركشايرز، والتي خدمت معها في معركة مايواند المشؤومة.

أُصِبتُ هناك برصاصة في كتفي، تسببت الرصاصة في كسر عظمة الترقوة، وخدشت الشريان أسفلها. كان من الممكن أن أقع في أيدي الغزاة القتلة، لولا التفاني والإقدام اللذان أبداهما مساعدي موراي، فقد ألقى بي على ظهر حصان ونجح في إعادتي بأمان إلى الخطوط البريطانية.

كنت غارقًا في ألمي والوهن الذي أصابني؛ نتيجة المصاعب التي مررت بها فترة طويلة. نُقِلت مع مجموعة كبيرة من الجرحى المصابين إلى المستشفى الرئيس في بيشاور. هنا استجمعت قواي، وتحسنت حتى صرت قادرًا على المشي في أرجاء المستشفى والتشمس قليلًا في الشرفة. إلا أنني أصبت بالحمى المعوية، تلك اللعنة التي حلت بمستعمراتنا الهندية. ظلت حياتي في حالة ميؤوس منها لشهور. وعندما بدأت أتعافى أخيرًا ودخلت في طور النقاهة، كنتُ ضعيفًا للغاية، وهزيلًا إلى الحد الذي جعل لجنة طبية تقرر أنه يجب إعادتي إلى إنجلترا فورًا دون تفويت يوم واحد. وبناء على ذلك أرسلت على متن سفينة أورنتس، وبعد شهر واحد هبطت على رصيف ميناء بورتسماوث بصحة متدنية تمامًا، ولكن بتصريح رحيم من الحكومة مُنحت تسعة أشهر لمحاولة استعادة صحتي.

لم يكن لدي أقارب ولا أصدقاء في إنجلترا، لذا كنتُ حرًّا تمامًا مثل الهواء الطَّلق، أو كما هو حال رجل معاشه اليومي أحد عشر شلنًا وستة بنسات. في ظروف كهذه كان من الطبيعي أن أنجذب إلى لندن، هذه البالوعة الضخمة التي يُصرَف إليها جميع العاطلين والمتسكعين في الإمبراطورية. مكثت هناك لبعض الوقت في فندق خاص في شارع ستراند، وعشت حياة بائسة عديمة المعنى. كنت أنفق كل ما أحصل عليه من المال ببذخ وحرية أكبر بكثير مما ينبغي، وأصبح وضعي المالي حرجًا للغاية، فسرعان ما أدركت أنه عليَّ إما مغادرة العاصمة والعيش في مكان ما في الريف، وإما إجراء تغيير كامل في نمط

معيشتي. اخترت البديل الثاني، فاتخذتُ قرارًا بترك الفندق والإقامة في مسكن أقل فخامة، وأرخص كُلفة.

في نفس اليوم الذي توصلت فيه لهذا القرار، كنت واقفًا في حانة كرايتريون عندما أتى شخص ما وربَّت على كتفي. وحين التفتُّ رأيت ستامفورد، ذلك الشاب الذي كان يعمل تحت إمرتي في بارتس. إنه لشيء مبهج أن يرى رجل وحيد مثلي وجهًا مألوفًا في وسط وحْشيَّة لندن. في الأيام الخوالي، لم يكن ستامفورد قط صديقًا مقربًا لي، لكنني رحبت به بحماس، وبدا على وجهه هو أيضًا السرور لرؤيتي. طلبت منه وأنا في غمرة السعادة أن يتناول الغداء معي في مطعم الهولبورن، فاتجهنا إلى هناك معًا في عربة تجرها الخيل.

وبينما تمشي العربة مصدرة صوت قعقعة في شوارع لندن المزدحمة، سألني بتعجب واضح:

– ماذا فعلت بنفسك يا واتسون؟ إنك نحيل كلوح خشبي، وبشرتك داكنة كحبة الجوز!

فحكيت له عن مغامراتي بإيجاز، وبالكاد أنهيتها بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى وجهتنا.

قال محاولًا مواساتي بعدما استمع إلى مصائبي:

– يا لك من مسكين! وما الذي تنوي فعله الآن؟

أجبته قائلًا:

– سأبحث عن مسكن جديد، وسأحاول حل المعضلة بإيجاد غرفة مريحة بسعر مقبول.

قال رفيقي:

– إنه لشيء غريب، أنت الشخص الثاني الذي سمعت منه هذه العبارة اليوم.

فسألته قائلًا:

– ومن كان الأول؟

– زميل يعمل في المختبر الكيميائي بالمستشفى. كان يتحسر على حاله هذا الصباح لأنه لم يتمكن من العثور على شخص يقاسمه المسكن اللطيف الذي وجده، لكنه لم يكن قادرًا على تحمل تكلفته وحده.

صرخت بلهفة قائلًا:

– يا إلهي! إذا كان يريد حقًا أن يشاركه أحدٌ المسكن والنفقات، فأنا الرجل المناسب لذلك. من الأفضل أن يكون لدي شريك على أن أكون وحدي.

نظر الشاب ستامفورد إليَّ بغرابة من فوق كأس النبيذ الذي يحمله، وقال:

– أنت لا تعرف من هو شيرلوك هولمز بعد.. وربما لن تكترث بأن يكون رفيقًا دائمًا لك.

– لماذا! ما الذي يعيبه؟

– لم أقل إن هناك ما يعيبه. صحيح أن أفكاره مريبة بعض الشيء، كما أنه هاوٍ لبعض فروع العلوم، إلا أنه رجل مهذب جدًّا على حد علمي.

فسألتُه قائلًا:

– أطالب طبٍّ، كما أفترض؟

– لا، ليس لديَّ فكرة عما ينوي التخصص فيه. أعتقد أنه ضليع في علم التشريح، كما أنه كيميائي من الدرجة الأولى، ولكنه على حد علمي لم يأخذ أي فصول نظامية في مجال الطب، دراساته متقطعة وغريبة الأطوار، لكنه جمع الكثير من المعارف المتفرقة والتي من شأنها أن تثير دهشة أساتذته.

– ألم تسأله أبدًا عن التخصص الذي يسعى وراءه؟

– لا، إنه ليس بالشخص الذي يسهل الكلام معه، مع أنه قد يسهب في الحديث عندما تتملكه الرغبة في ذلك.

– أود مقابلته، إذا كنت سأنتقل للعيش مع شخص ما، فإني أفضل أن يكون رجلًا مُحِبًّا للدراسة هادئ الطباع؛ فأنا لم أسترد كامل صحتي بعد لكي أتحمل الضجيج والهياج فقد نلت كفايتي منهما في أفغانستان بقية حياتي. كيف يمكنني مقابلة صديقك هذا؟

– من المؤكد أنه في المختبر، فهو إما يتجنب الذهاب إليه لأسابيع، وإما أن يعمل هناك من الصباح حتى المساء. إذا كنت ترغب في ذلك، يمكننا الذهاب هناك معًا بعد الغداء.

أجبته:

– بالتأكيد.

ثم انجرف حديثنا بعيدًا وتشعب في مواضيع أخرى، وبينما نشق طريقنا إلى المستشفى بعد أن غادرنا الهولبورن، أعطاني ستامفورد بعض التفاصيل الإضافية عن السيد المقترح كزميل للسكن. قال:

– لا تلمني إن لم تستطع التأقلم معه، أنا لا أعلم عنه الكثير، كنت أراه في المختبر بين الحين والآخر، لا شيء أكثر من ذلك، وبما أنك صاحب هذا الاقتراح فلا يمكنك أن تحملني المسؤولية.

أجبته قائلًا:

– يمكننا فضَّ الشراكة إذا لم نتفق.

ثم أمعنت النظر إليه وأضفتُ:

– يبدو لي أن لديك من الأسباب ما يدفعك لإخلاء يديك من المسؤولية عن الموضوع يا ستامفورد. هل الرجل صعب الطباع إلى هذه الدرجة؟ أفصح لي عما تعرفه ولا تكن كتومًا.

أجابني ضاحكًا:

– ليس من السهل التعبير عما لا يمكن وصفه. إن هولمز بارد الدم -من وجهة نظري- ولعٌ بالعلوم لدرجة لا يمكنني احتمالها. يمكنني أن أتخيله يعطي صديقًا جرعة من أحدث المركبات القلوية النباتية، ليس من منطلق الشر، ولكن ببساطة انطلاقًا من روح البحث والاستكشاف، لكي يكوِّن فكرة دقيقة حول تأثير ذلك المركَّب. ولكن إنصافًا له، أعتقد أنه لن يتردد في تجربتها على نفسه بنفس الجاهزية، فهو يبدو شغوفًا للغاية بالوصول إلى المعلومات الدقيقة المحددة.

– معه كل الحق.

– نعم، ولكن الأمر قد يتطور تطورًا مبالغًا فيه حين يصل الوضع لضرب الجثث بعصا في غرفة التشريح، فمن المؤكد أن الوضع يتخذ صورةً شاذة وغريبة.

– يضرب الجثث!

– أجل، للتحقق من مدى ظهور الكدمات بعد الموت. لقد رأيته يفعل ذلك بأم عيني.

– ومع ذلك تقول إنه ليس طالب طب؟

– لا، الله وحده من يعلم ما الغرض من أبحاثه ودراساته تلك. ولكن ها نحن هنا، والآن عليك أن تكوِّن انطباعاتك الخاصة عنه.

وبينما يتحدث، انحدرنا إلى شارع ضيق وعبرنا من باب جانبي صغير يؤدي إلى أحد أجنحة المستشفى الكبير. لقد كان المكان مألوفًا لي، لم أكن بحاجة لمن يرشدني ونحن نصعد السلم الحجري الكئيب، ونشق طريقنا إلى الأسفل عبر ممر طويل جدرانه بيضاء يتخلَّلها أبواب قاتمة، وبالقرب من نهايته تفرع منه ممر آخر مقوس ومنخفض، يؤدي إلى المختبر الكيميائي.

كانت غرفة المختبر مهيبة، مصطفة بالزجاجات التي تعد ولا تحصى. تنتشر فيها طاولات عريضة منخفضة، ومليئة بأجهزة التقطير وأنابيب الاختبار، ومصابيح بنسن الصغيرة ذات ألسنة اللهب الزرقاء المرتعشة.

لم يكن في الغرفة سوى طالب واحد، وكان منحنيًا على طاولة بعيدة، مستغرقًا في عمله، وعندما سمع وقع أقدامنا نظر حوله وقفز على قدميه وصاح من فرحته قائلًا:

– لقد وجدتها! لقد وجدتها!

وصاح بوجه رفيقي وهو يركض نحونا وبيده أنبوبة اختبار:

– لقد وجدت كاشفًا يرسبه الهيموجلوبين ولا شيء آخر سواه. ولو كان قد اكتشف منجمًا للذهب، لما ظهرت على وجهه علامات فرحة أكبر من هذه.

عرفنا ببعض قائلًا:

– دكتور واتسون، السيد شيرلوك هولمز.

سألني السيد هولمز بود قائلًا:

– كيف حالك؟

ثم شدَّ على يدي بقوة بطريقة جعلتني بالكاد أصدقه، وقال:

– لقد كنتَ في أفغانستان، على ما أعتقد.

فسألته في ذهول:

– كيف عرفت ذلك بحق السماء؟

قال ضاحكًا:

– لا يهم، إن المسألة الآن تتعلق بالهيموجلوبين، فلا شك في أنك تدرك مدى أهمية هذا الاكتشاف الخاص بي؟

أجبته قائلًا:

– إنه مثير للاهتمام، من الناحية الكيميائية، بلا شك، لكن من الناحية العملية..

– لماذا يا رجل، إنه الاكتشاف الأكثر عملية في الطب الشرعي منذ أعوام. ألا ترى أنه يعطينا نتائج مؤكدة عند فحص بقع الدم؟ تعال إلى هنا الآن!

أمسكني من كُمِّ معطفي وهو في أوج حماسه وجذبني نحو الطاولة التي يعمل عليها وقال:

– دعونا نحصل على بضع قطرات من الدم الطازج.

ثم غرز إبرة طويلة في إصبعه، وسحب قطرة الدم الناتجة عن ذلك في أنبوب كيميائي ماصٍّ.

– لقد أضفت الآن هذه الكمية الصغيرة من الدم إلى لتر واحد من الماء. إنك ترى كيف أن لهذا الخليط مظهر الماء النقي. إن مقدار الدم لا تتعدى نسبته الواحد في المليون، ليس لدي شك في ذلك، إلا أنني واثق من أننا سنتمكن من الحصول على تفاعل مميز.

وبينما يتحدث ألقى ببعض البلورات البيضاء الصغيرة، ثم أضاف بضع قطرات من سائل شفاف، وفي الحال بدأت المحتويات تأخذ لونًا ماهوجنيًّا باهتًا، واستقر راسب بني في قاع الإناء الزجاجي.

«ها! ها!» صاح السيد هولمز وصفق بيديه مثل طفل فرح بلعبته الجديدة.

سأل السيد هولمز:

– ما رأيك في ذلك؟

علقتُ قائلًا:

– يبدو أنه اختبار دقيق جدًّا.

– رائع! رائع! فقد كان اختبار الغواياك[1] القديم أخرق وغير مؤكد، وكذلك الفحص المجهري لكريات الدم، فإنه يصبح عديم النفع إذا مضت على اللطخات بضع ساعات. أما هذا الاختبار فيعمل بذات الجودة، سواء أكانت بقع الدم قديمة أم حديثة. لو أن هذا الاختبار قد اكتشف من قبل لكان مئات من الرجال الذين يسيرون على الأرض الآن قد نالوا عقوبة جرائمهم منذ زمن طويل.

تمتمتُ، ثم قلتُ:

– بالتأكيد!

– كثيرًا ما تتوقف القضايا الجنائية عند هذه النقطة، فقد يتهم شخص بجريمة ما بعد ارتكابها بشهور. وحين تُفحص ملابسه، وتُكتشف البقع البنية عليها، فيكون السؤال هنا هل هي بقع دم، أم طين، أم صدأ، أم بقع فاكهة، أم ماذا؟ كان هذا هو السؤال الذي حير العديد من الخبراء، ولماذا؟ لأنه لم يكن هناك اختبار موثوق، لكن الآن أصبح لدينا اختبار شيرلوك هولمز، ولن نواجهه صعوبة بعد اليوم.

لمعت عيناه وهو يتكلم ووضع يده على قلبه، وانحنى كما لو كان أمام تصفيق حشد استحضره خياله.

دهشت من حماسته اندهاشًا كبيرًا، وعلقت قائلًا:

– يجب عليَّ تهنئتك.

– في العام الماضي كانت هناك قضية فون بيسكوف في فرانكفورت، وكان سيشنق بالتأكيد لو أن هذا الاختبار كان موجودًا حينئذ. ومن بعده كانت هناك قضية ماسون في برادفورد، ومولر سيئ السمعة، ولفيفر في مونبلييه، وسامسون في نيو أورليانز. يمكنني ذكر الكثير من القضايا التي كان من الممكن حسمها.

قال ستامفورد ضاحكًا:

– تبدو كسجل جرائم يمشي على قدمين. يمكنك إنشاء صحيفة بناءً على تلك المعلومات وتسميتها (أخبار بوليسية من الماضي).

– ستكون قراءتها مثيرة للاهتمام.

قالها شيرلوك هولمز وهو يضع ضمادة لاصقة صغيرة مكان الوخزة في إصبعه، ثم التفت إليَّ مبتسمًا وأضاف:

– يجب عليَّ الحذر، فأنا أشتغل في السموم كثيرًا.

وبينما كان يتحدث رفع يده ولاحظتُ كيف كانت مرقعة كلها بقطع مماثلة من الضمادات اللاصقة، وملطخة بالأحماض القوية.

قال ستامفورد وهو يجلس على كرسي مرتفع بثلاث أرجل مادًّا إحدى قدميه تجاهي:

– نحن هنا من أجل العمل، وصديقي هنا لأنه يبحث عن سكن مناسب، وبما أنك كنت تشكو من أنك لا تجد من تشاطره السكن، ففكرت أن أجمعكما معًا.

بدا شيرلوك هولمز سعيدًا بفكرة مشاركة الغرفة معي، وقال:

– أضع عيني على جناح في شارع بيكر وهو مناسب تمامًا لنا. آمل أنك لا تمانع رائحة التبغ القوية؟

أجبته:

– لا أبدًا، فأنا نفسي أدخن كثيرًا.

– ذلك جيد بما يكفي. في العموم، أنا أحتفظ بمواد كيميائية، وأقوم بإجراء التجارب بين الحين والآخر، فهل يزعجك هذا؟

– لا، بتاتًا.

– دعني أرى ما عيوبي الأخرى؟ أجل.. أدخل في نوبات من الاكتئاب، وقد لا أتفوه بأية كلمة لأيام متتالية، فلا تفكرني غاضبًا عندما أكون كذلك، دعني وشأني فقط، وسأتحسن سريعًا. والآن، ماذا لديك

أنت لتعترف به؟ إنه لأمر جيد لأي زميلين أن يكونا على علم بأسوأ ما في بعضهما بعضًا قبل أن يبدآ في العيش معًا.

أضحكني استجوابه، ورددتُ قائلًا:

– مزاجي سيئ ومتقلب، ولا أحتمل الضجيج، وأكره الجدالات لأن أعصابي متوترة، وأستيقظ في أوقات غير معقولة، وأعاني من كسل شديد، وسيكون لدي العديد من العيوب الأخرى عندما أسترد صحتي، لكن هذه هي عيوبي الرئيسة في الوقت الحالي.

سألني في قلق:

– هل تعتبر العزف على الكمان من ضمن الأشياء التي تزعجك؟

أجبته قائلًا:

– إن الأمر معتمد على العازف، فإن العزف الجيد هو علاج للروح، أما العزف السيئ..

قال بضحكة مرحة:

– نعم، هذا صحيح. أعتقد أننا قد حسمنا الأمر، هذا إذا أعجبك المسكن.

– متى يمكننا أن نراه؟

أجابني قائلًا:

– قابلني هنا غدًا عند الظهيرة، لنذهب معًا ونحسم الأمر.

فقلت وأنا أصافحه:

– حسنًا، عند الظهيرة بالضبط.

تركناه يعمل مع مُركَّباته الكيميائية، وسرنا معًا إلى الفندق الذي أقيم فيه. وقفت فجأة والتفتُّ إلى ستامفورد وسألته قائلًا:

– بالمناسبة، كيف عرف أنني جئت من أفغانستان بحق السماء؟

ابتسم رفيقي ابتسامة غامضة، ثم أجاب:

– إنها فقط بعض من صفاته الغريبة، هنالك الكثيرون ممن يودون معرفة كيف يكتشف أمورًا مثل هذه.

قلت بحماس وأنا أفرك كفَّيَّ:

– يا له من لغز! إن هذا مثير حقًّا، أنا ممتن لك كثيرًا، لأنك جمعتنا معًا. فإن أفضل سبيل لفهم الإنسانية هو دراسة الإنسان نفسه كما تعلم.

ودَّعني ستامفورد قائلًا:

– يجب عليك دراسته إذن، لكنك ستجد الموضوع معقدًا. أُراهن أنه يعرف عنك أكثر مما تعرفه أنت عنه.. وداعًا.

فقلت: «وداعًا».

ثم مشيت إلى الفندق وكلي فضول حول هذا الرجل الذي تعرفت إليه حديثًا.

اختبار لتحري الدم الخفي في البول أو البراز عن طريق استخدام صمغ الغواياك.

الفصل الثاني

علم الاستنتاج

التقينا في اليوم التالي حسب اتفاقنا، وتفقَّدنا المسكن رقم (221ب) الموجود في شارع بيكر، الذي قد تحدثنا عنه في لقائنا بالأمس. يتكون المسكن من غرفتَي نوم مريحتين، وغرفة معيشة واحدة كبيرة جيدة التهوية، مفروشة بأثاث مبهج، ومضاءة بنافذتين كبيرتين. أعجبنا المسكن من كل النواحي، وبدت تكلفة إيجاره هينة عند تقسيمها بيننا؛ فعقدنا الاتفاق على الفور، واستأجرناه.

وفي المساء نقلت أغراضي من الفندق إلى المسكن الجديد، وتبعني شيرلوك هولمز في الصباح التالي بنقل العديد من الصناديق والحقائب الكبيرة. انشغلنا ليوم أو اثنين بتفريغ وتنظيم أغراضنا في الأماكن المناسبة لها على أفضل وجه. وبعدما أنجزنا تلك المهمات، بدأنا نستقر ونتكيف مع المكان الجديد.

بالتأكيد لم يكن هولمز رجلًا يصعب العيش معه، فقد كان هادئ الطباع ومنتظمًا في عاداته. نادرًا ما كان يظل مستيقظًا بعد الساعة العاشرة مساءً، وكان يتناول إفطاره ويخرج قبل أن أستيقظ في الصباح.

كان يقضي يومه أحيانًا في المختبر الكيميائي، وأحيانًا أخرى في المشرحة، وأحيانًا كان يذهب للتنزه على الأقدام لمسافات طويلة، حيث تقوده قدماه إلى المناطق الفقيرة في المدينة على ما يبدو. لا شيء يفوق طاقته ونشاطه عندما يعمل، ولكنه بين الحين والآخر يتعرض لنوبات من الاكتئاب فيظل لأيام مستلقيًا على الأريكة في غرفة المعيشة، بالكاد يلفظ كلمة أو يحرك إصبعًا من الصباح إلى المساء. عندما تنتابه هذه الحالة تكون نظراته حالمة ويظل غير مكترث بشيء إلى درجة كادت تدعوني للشك في تعاطيه بعض المواد المخدرة، إلا أن سلوكه المنضبط وامتناعه عن شرب الخمور طوال حياته منعني من التفكير في هذا الأمر.

وبمرور الأسابيع، ازداد اهتمامي به، وازداد فضولي لمعرفة أهدافه في الحياة. كانت هيئته ومظهره كفيلين بجذب انتباه أي شخص عابر. كان طوله يبلغ أكثر من ستة أقدام، ولأنه كان نحيفًا للغاية، ما جعله يبدو أكثر طولًا. كانت عيناه حادتين، ونظراته ثاقبة -في غير فترات السبات تلك التي أشرت إليها سلفًا- وأعطاه أنفه الرفيع الأشبه بمنقار الصقر مظهرًا يوحي باليقظة والحسم. وكان لذقنه أيضًا البروز والتربيع اللذان يميزان الرجال أصحاب العزيمة. لطالما كانت يداه ملطختين بالحبر والمواد الكيميائية، ومع ذلك كان لديه لمسة حساسة للغاية نحو لأشياء، فقد أتيحت لي الفرصة مرارًا لمشاهدته وهو يتلاعب بأدواته العلمية شديدة الرهافة.

قد يظن القارئ أنني شخص فضولي يائس. أعترف بمدى إثارة هذا الرجل لفضولي، وكمِّ المرات التي حاولت فيها كسر تحفظه بشأن كل الأشياء التي تتعلق به. فقبل النطق بحكمٍ، تذكروا كيف كانت حياتي عبثية وبلا هدف، ومدى قلة الأشياء التي كانت قادرة على جذب انتباهي. فحالتي الصحية كانت

ترغمني على عدم المخاطرة بالخروج إلا إذا كان الجو معتدلًا تمامًا. ولم يكن لي أصدقاء ليزوروني، ويكسروا رتابة حياتي اليومية، وفي ضوء هذه الظروف، رحبت بحماس بهذا اللغز الصغير الذي يدور حول رفيقي، وأمضيت معظم وقتي في محاولة حلِّه.

لم يكن شيرلوك هولمز يدرس الطب. هكذا أكَّد لي حين سألتُه فتبين لي أن ستامفورد كان محقًّا في رأيه حول تلك النقطة. ولم يبدُ أنه منتظم على أي قراءات مكثفة على النحو الذي يؤهله إلى الحصول على درجة علمية في العلوم، أو أي شيء متعارف عليه من شأنه أن يجعله واحدًا من أهل العلم. ومع هذا، كانت حماسته لبعض الدراسات استثنائية. ومن ضمن الأشياء الغريبة أنه كان واسع المعرفة ومعلوماته دقيقة للغاية، لدرجة أن ملاحظاته كانت تدهشني إلى حدٍّ كبير. ومن المؤكد أنه لا يوجد أحد يعمل بهذه الجدية أو يسعى للحصول على معلومات بهذه الدقة، ما لم يكن لديه هدف محدد. فمن النادر أن نجد أن القرَّاء الذين يقرؤون قراءة عشوائية يتميزون بمثل هذه الدقة في معلوماتهم. لا أحد يرهق عقله بأمور صغيرة كهذه إلا إذا كان لديه سبب وجيه يدفعه للقيام بذلك.

غير أن مقدارَ جهل شيرلوك هولمز كان ملفتًا بنفس مقدار علمه! فمعرفته بمجالات مثل الأدب المعاصر، والفلسفة، والسياسة، تكاد تكون معدومة. وعندما ذكرت أمامه اقتباسًا لتوماس كارليل بدأ يستفسر بسذاجة عمن يكون كارليل وماذا فعل؟ بل إن دهشتي قد بلغت ذروتها عندما اكتشفت صدفةً أنه كان يجهل نظرية كوبرنيكوس، وأنه لا يعرف شيئًا عن النظام الشمسي وتكوينه. لا أصدق كيف لأي إنسان متحضر يعيش في القرن التاسع عشر ألا يعي أن الأرض تدور حول الشمس، بدا ذلك شيئًا في غاية الغرابة من وجهة نظري، حتى إنني استوعبته بأعجوبة.

فلما رأى تعبيرات الدهشة على وجهي ابتسم وقال:

– يبدو أنك مندهش، الآن وبعد أن عرفت هذه المعلومة، سأعمل جاهدًا على نسيانها.

– نسيانها؟!

فأوضح لي قائلًا:

– إنني أعتبر العقل البشري كغرفة العليَّة الصغيرة الفارغة، وعليك ملؤها بالأثاث الذي تختاره، والأحمق من يحشر فيها كل ما يصادفه من سقْط المتاع، بحيث تزاحم المعلومات المفيدة التي يحتاجها حقًّا، أو على أحسن تقدير، ستختلط وتتبعثر وسط هذه الفوضى فيكون من الصعب العثور عليها. الشخص الذكي هو من يكون حريصًا للغاية بشأن ما يضعه في غرفة العقل الخاصة به. فلا يضع فيها إلا ما يساعده على إنجاز عمله، ويحرص على ترتيبها ترتيبًا مثاليًّا. فمن الخطأ أن تعتقد أن لتلك الغرفة الصغيرة حوائط مطاطة وأن بإمكانك توسيعها إلى أي مدى، وإلا سيأتي عليك وقت يضطر عقلك فيه أن ينسى معلومة قديمة، مقابل إضافة معلومة جديدة؛ ولذلك من المهم التحقق من أنه لا وجود لحقائق عديمة الفائدة تزاحم المعلومات المفيدة؛ فتدفعها خارجًا.

اعترضت قائلًا:

– ولكن النظام الشمسي!

فقاطعني وصبره يكاد ينفد قائلًا:

– وما الذي من المفترض أن يهمني في هذا الأمر؟ إنك تقول إننا ندور حول الشمس، ولكن حتى إن كنا ندور حول القمر فلن يشكل هذا أي فرق من شأنه أن يؤثر عليَّ أو على عملي.

كنت على وشك أن أسأله عن ماهية عمله، ولكن شيئًا ما في أسلوبه جعلني أشعر أن سؤالي هذا سيكون سؤالًا غير مرحب به. فجلست أفكر مليًّا في محادثتنا القصيرة، محاولًا استخلاص استنتاجاتي الخاصة. لقد قال إنه لن يسعى لاكتساب أي معرفة لا تخدم هدفه، لذا فإن كل المعارف التي اكتسبها لا بد أن تحقق له فائدة ما. بدأت أحصي في عقلي كل النقاط المختلفة التي بدا لي أنه ضليع فيها بدرجة استثنائية، حتى إنني أخذت قلمًا ودونتها باختصار، ولم أستطع إلا أن أضحك عندما نظرت إلى الورقة بعد أن أكملتها، لقد كانت كالآتي:

قدرات شيرلوك هولمز وإمكاناته في مجالات المعرفة المختلفة:

1- معرفته بالأدب: لا شيء.

2- الفلسفة: لا شيء.

3- علم الفلك: لا شيء.

4- السياسة: ضعيفة.

5- علم النباتات: متفاوتة (ضليع في استخدام نبات البيلادونا السام والأفيون، والسموم بوجه عام، لكنه لا يعرف شيئًا عمليًّا عن الزراعة).

6- الجيولوجيا: عملية لكن محدودة (يمكنه بلمحة واحدة أن يفرق بين أنواع التربة المختلفة. فبعد أن عاد مرة من نزهة على الأقدام أراني بعض البقع الطينية على بنطاله، وكان قادرًا من خلال لونها وقوامها أن يخبرني في أي جزء بالتحديد من لندن حصل على هذه البقع).

7- الكيمياء: عميقة.

8- علم التشريح: دقيقة، ولكن غير منهجية.

9- أدب الجريمة والإثارة: هائلة (يبدو وكأنه يعرف جميع التفاصيل حول كل الجرائم المرعبة التي ارتكبت خلال القرن).

10- يعزف على الكمان على نحو جيد.

11- خبير في القتال بالعصي، وملاكم، ويجيد المبارزة بالسيوف.

12- لديه معرفة عملية بالقانون البريطاني.

وما أن وصلت إلى هذا الحد في قائمتي، حتى تملكني اليأس ورميتها في نار المدفأة. وقلت لنفسي: «إذا كان التوفيق بين كل هذه المعلومات والمهارات هي الطريقة التي سأكتشف بها ماهية ما يسعى إليه رفيقي هذا فلا يبدو أنني سأنجح».

أرى أنني قد أشرت أعلاه إلى قدرته على العزف على الكمان، وهذا لافت للنظر بدرجة كبيرة، لكنه غريب أيضًا مثل كل مهاراته الأخرى، فقد كنت أعرف جيدًا أن بإمكانه عزف المقطوعات، حتى الصعبة منها، لأنه عزف لي – بناءً على طلبي – بعضًا من مقطوعات مندلسون ليدر، وبعضًا من مفضلاتي

الأخرى. لكن عندما يكون بمفرده، فإنه نادرًا ما كان يحاول أن يعزف أيًّا من الألحان الموسيقية المعروفة. في بعض الأحيان كان يسترخي على كرسيه في المساء ويميل برأسه إلى الخلف مغمضًا عينيه، مداعبًا أوتار كمانه الملقى على ركبتيه بلا مبالاة. كانت الألحان رنانة، وحزينة أحيانًا، ورائعة ومبهجة في أحيان أخرى، فمن الواضح أن هذه الألحان كانت تعكس الأفكار التي تدور في ذهنه. ولكن هل كانت الموسيقى تساعده على التفكير، أم أن عزفه كان مجرد نتيجة لهواه وخيالاته؟ هذا ما لم أستطع تحديده. وكان من الممكن أن أثور على تلك الألحان المستفزة المثيرة للسخط، لولا أنه عادةً ما كان ينهيها بعزف سلسلة كاملة من مقطوعاتي المفضلة في تتابع سريع كتعويض بسيط عن صبري.

لم يزرنا أحد خلال الأسبوع الأول من إقامتنا في المسكن الجديد؛ فبِتُّ أعتقد أن رفيقي ليس لديه أصدقاء مثلي. لكنني اكتشفت حاليًا أن لديه الكثير من المعارف من مختلف طبقات المجتمع، أحدهم كان رجلًا ضئيلَ الحجم شاحب الوجه وله عينان داكنتان، ووجهه كوجه الفأر، قدمه لي رفيقي باسم السيد ليستراد، وقد جاء ثلاث أو أربع مرات في أسبوع واحد. وذات صباح، زارتنا فتاة شابة أنيقة الملبس ومكثت لنصف ساعة أو أكثر. وبعد ظهر اليوم نفسه، جاء زائر آخر أشيب، رث الثياب مثل بائع متجول يهودي، وقد بدا لي منفعلًا للغاية، وتبعَته مباشرةً امرأة عجوز رثة. وفي مناسبة أخرى، جاء رجل محترم أشيب الشعر؛ ليجري مقابلة مع رفيقي، وفي مرة أخرى رأيت أحد عَتَّالي السكة الحديدية مرتديًا زِيَّه المخملي الرسمي. وعند ظهور أي من هؤلاء الأشخاص الذين لا تجمعهم صفة مميزة، اعتاد شيرلوك هولمز أن يستأذن لكي يستخدم غرفة المعيشة، وعليه كنت أنعزل وحدي في غرفة نومي. وكان دائم الاعتذار لي عن التسبب في هذا الإزعاج، قائلًا:

– يجب أن أستخدم هذه الغرفة كمكان للعمل، فإن هؤلاء الأشخاص هم عملائي.

وها قد أتيحت لي الفرصة من جديد لكي أطرح عليه سؤالي بوضوح، إلا أن لباقتي منعتني من أن أجبر شخصًا آخر على الوثوق بي. ظننت في ذلك الوقت أن لديه سببًا قويًّا يجبره على عدم الإفصاح عن الأمر، إلا أنه سرعان ما بدد هذا الظن من خلال تطرقه إلى الموضوع من تلقاء نفسه.

كان ذلك في الرابع من مارس، فلدي سبب وجيه لكي أتذكر هذا التاريخ جيدًا. استيقظت في ذلك اليوم في وقتٍ أبكر من المعتاد، فوجدت أن شيرلوك هولمز لم ينته من تناول فطوره بعد، حتى إن صاحبة المسكن التي اعتادت على تأخري لم تكن قد أعدت لي مكانًا على الطاولة، ولا قامت بتحضير قهوتي بعد. وكعادة سرعة غضب البشر، قرعت الجرس وأشرت لها بأنني مستعد لتناول فطوري، والتقطت مجلة من على الطاولة كمحاولة لتزجية الوقت بتصفحها، بينما كان رفيقي يمضغ خبزه في صمت، ولفت نظري علامة بالقلم الرصاص على عنوان إحدى المقالات، فبدأت بطبيعة الحال في قراءته.

كانت المقالة تحت عنوان (كتاب الحياة) وقد بدا لي العنوان مثيرًا للاهتمام إلى حد ما، حاولت المقالة أن توضح مقدار ما يمكن لشخص شديد الملاحظة تعلمه من خلال الفحص الدقيق والمنهجي لكل ما يعترض طريقه. لقد صدمتني لكونها تمزج بأسلوب لافت للنظر بين الدهاء والسخف. كانت الحُجَّة مُحكمة وقوية، لكن الاستنتاجات بدت لي بعيدة الاحتمال ومبالغًا فيها. فقد ادعى الكاتب أنه من الممكن معرفة الأفكار التي تدور داخل عقل الإنسان، من خلال تعبير لحظي أو من تشنج إحدى العضلات أو

من نظرة عين خاطفة. وأنه من المستحيل أن يُخدع رجل مدرب على الملاحظة والتحليل. كانت استنتاجاته تبدو غير قابلة للخطأ وكأنها من مسلمات إقليدس؛ لذا ستبدو نتائجه مذهلة لغير الخبراء، حتى إنهم قد يظنونه عرَّافًا إلى أن يعرفوا الخطوات التي اتبعها كي يتوصل لتلك النتائج.

قال الكاتب: «إن الإنسان صاحب التفكير المنطقي بإمكانه إذا رأى قطرة ماء أن يستدل منها على وجود محيط أطلسي أو شلالات نياجرا، دون رؤيته أو سماعه عن أي منهما. فإن الحياة سلسلة كبيرة، ويمكننا فهم طبيعتها بمجرد أن تظهر لنا إحدى حلقاتها. ومثل جميع العلوم الأخرى، فإن علم الاستنتاج والتحليل لا يمكن اكتسابه إلا من خلال الدراسة الطويلة المتأنية، وليست الحياة طويلة بما يكفي للسماح لأي إنسان بتحقيق أعلى قدر ممكن من الكمال فيه. وقبل الالتفات إلى هذه الجوانب الأخلاقية والعقلية للموضوع، التي تمثل أكبر الصعوبات، دع الطالب يبدأ بإتقان المشكلات الأولية، دعه يتعلم كيف يكون قادرًا عندما يقابل شخصًا ما على أن يميز ماضيه ومهنته أو الحرفة التي يعمل بها من نظرة واحدة. قد يبدو هذا التمرين صبيانيًّا، لكنه يقوِّي القدرة على الملاحظة، ويعلم المرء أين يبحث وما الذي يجب أن يتفقَّده، فمن الممكن اكتشاف مهنة أي شخص أو عمله عن طريق ملاحظة أظافره، وأكمام معطفه، وحذائه، وركبتي بنطاله، وغلظة جلد سبابته وإبهامه، وتعابير وجهه، وأصفاد قميصه، فإذا اجتمعت كل هذه العناصر معًا؛ فلن يفشل المتدرب أبدًا في تحقيق هدفه».

رميت المجلة على الطاولة بقوة وصحت قائلًا:

– يا له من هراء لا يصدقه عقل!

فسألني شيرلوك هولمز:

– ما الأمر؟

فقلت وأنا جالس لتناول فطوري، ومشيرًا إلى المقالة بملعقة البيض:

– لماذا هذه المقالة بالذات؟ أرى أنك قرأتها بما أنك قد وضعت علامة عليها. أنا لا أنكر أنها كُتبت بذكاء، ولكنها مع ذلك أثارت غضبي. من الواضح أن كاتبها شخص كسول يجلس على كرسيه ذي الذراعين ويُطلق هذه المفارقات الدقيقة المرتبة وهو لم يغادر غرفة دراسته، إنها غير عملية وغير قابلة للتطبيق، أود لو ألقي به داخل عربة من عربات الدرجة الثالثة في قطار الأنفاق، وأطلب منه أن يخبرني بمهنة كل راكب فيها، سأراهن على خسارته بألف إلى واحد.

قال شيرلوك هولمز بهدوء:

– سوف تخسر مالك إذن، أما فيما يخص المقالة فقد كتبتها بنفسي.

– أنت!

– نعم، لدي القدرة على الملاحظة القوية والاستنتاج، والنظريات التي شرحتها في المقال، والتي بدت لك خيالية، هي عملية جدًّا في حقيقة الأمر، عملية لدرجة أنني أعتمد عليها لكسب عيشي.

فسألته تلقائيًا:

– ولكن كيف؟

– حسنًا، لدي مهنة خاصة بي، أزعم أنني الوحيد الذي يزاولها في هذا العالم، أنا محقق استشاري – إذا كنت تستطيع أن تفهم معنى ذلك– هنا في لندن لدينا العديد من المحققين التابعين للحكومة، والعديد من المحققين الخاصِّين، وعندما يخطئ هؤلاء الزملاء يلجؤون إليَّ، فأقوم بوضعهم على جادَّة الطريق. يقدمون لي جميع الأدلة وأكون قادرًا بوجه عام من خلال إلمامي بتاريخ الجريمة على تصحيح مسارهم. وهناك العديد من أوجه الشبه بين الجرائم المختلفة، فإذا استطعت كشف اللغز وراء ألف جريمة، سيكون من الغريب ألا تستطيع كشف سر الجريمة الواحدة بعد الألف. ليستراد محقق معروف، وقد اختلط عليه الأمر مؤخرًا حول قضية تزوير؛ وهذا ما أتى به إلى هنا.

– وهؤلاء الأشخاص الآخرون؟

– في الأغلب قد أُرسلوا من قبل وكالات التحقيق الخاصة. جميعهم أناس يواجهون مشكلة بشأن شيء ما ويريدون بعض الإرشاد؛ لذا أستمع لقصصهم ويستمعون لتعليقاتي، ثم أحصل منهم على أتعابي.

– أتعني بذلك أنك تستطيع من دون مغادرتك لهذه الغرفة أن تحل لغزًا يعجز الآخرون عن حله مع أنهم قد رأوا كل التفاصيل بأنفسهم؟

– بالضبط، فإن لدي حدسًا قويًّا نوعًا ما بتلك الطريقة، ولكن تظهر بين الحين والآخر قضية أكثر تعقيدًا بعض الشيء، فيكون عليَّ أن أسرع السير؛ لرؤية الأشياء بأم عيني. وكما تعلم فإن لدي الكثير من المعرفة الخاصة والتي أطبقها على المشكلة بهدف إيجاد الحل، فتسهل الأمور عليَّ بدرجة رائعة. وقواعد الاستنتاج تلك المنصوص عليها في المقال والتي أثارت سخريتك، هي لا تُقدَّر بثمن عندي، في الجانب العملي من مهنتي. إن قوة الملاحظة تجري في دمي. لقد بدوتَ لي متفاجئًا عندما أخبرتك بأنك جئت من أفغانستان في أول لقاء لنا. ألا تذكر؟

– لا شك أن أحدهم قد أخبرك بالأمر.

– لا شيء من هذا القبيل. لقد عرفت أنك جئت من أفغانستان من خلال التمرس على الملاحظة، فقد تواردت سلسلة من الأفكار في ذهني بسرعة هائلة حتى إني توصلت إلى الاستنتاج دون أن أعي الخطوات الوسيطة التي أدت بي إليه. لكن على أي حال، كانت الخطوات شيئًا كالآتي: أمامي طبيب محترم لكن له طابعًا عسكريًّا، إذن فمن المؤكد أنه طبيب في الجيش، ويبدو أنه جاء من مناطق استوائية؛ لأن بشرته تبدو داكنة عن لونها الطبيعي فبشرة معصميه فاتحة اللون. ومن الواضح أنه مرَّ بفترة عصيبة وعانى من المرض فوجهه الشاحب المنهك يدل على ذلك بوضوح. ذراعه اليسرى مصابة، ويمسك بها بقوة بطريقة غير مألوفة. ففي أي المناطق الاستوائية يمكن لطبيب الجيش البريطاني أن يرى الكثير من المشقة وأن يصاب في ذراعه؟ بالطبع في أفغانستان. لقد حدث تسلسل كل هذه الأفكار في أقل من ثانية، ومن ثم قلت لك إنك قد جئت من أفغانستان، فانتابتك الدهشة.

قلت مبتسمًا:

– يبدو لي الأمر بسيطًا الآن بعد أن شرحته. أنت تذكرني بشخصية المحقق أوغست دوبين الخيالية في مؤلفات إدغار آلان بو، لم أكن أعلم أن أشخاصًا مثله موجودون على أرض الواقع خارج القصص.

نهض شيرلوك هولمز وأشعل غليونه وقال:

– لا شك أنك تعتقد بأنك تمدحني حين تشبهني بدوبين، ولكن في رأيي، دوبين أقل كفاءة بكثير، فإن حيلته المتمثلة في أفكار أصدقائه بملاحظة سديدة بعد ربع ساعة من الصمت هي في حقيقة الأمر حيلة مبهرجة وسطحية للغاية. كان لديه شيء من العبقرية في تحليل الأمور بلا شك، ولكنه لم يكن بأي حال من الأحوال ظاهرة كما تخيله بو.

قاطعته سائلًا:

– هل قرأت أعمال غابوريو؟ هل ترقى شخصية ليكوك لفكرتك عما يجب أن يكون عليه المحقق؟

بدا شيرلوك هولمز ساخرًا وأجابني بصوت غاضب:

– إن ليكوك كان غبيًّا وبائسًا، كان لديه شيء واحد فقط يميزه، وهو نشاطه. لقد أصابني هذا الكتاب بالإعياء، فقد كانت كل المسألة التي يدور حولها هي اكتشاف هوية سجين مجهول، كان بإمكاني اكتشاف الأمر في أربع وعشرين ساعة، في حين استغرق ليكوك ستة أشهر تقريبًا، من الممكن تحويل هذا الكتاب إلى كتاب دراسي يعلم المحققين ما يجب عليهم تجنبه.

شعرت بالسخط نوعًا ما بسبب حديثه بهذا الأسلوب المتعجرف عن شخصيتين كنت معجبًا بهما بدرجة كبيرة. مشيت في اتجاه النافذة ووقفت أنظر إلى الشارع المزدحم وقلت لنفسي: «قد يكون هذا الرجل ذكيًّا جدًّا، لكنه بالتأكيد مغرور للغاية».

قال شيرلوك هولمز شاكيًا: «لا يوجد هناك جرائم ولا مجرمون في هذه الأيام، إذن فما فائدة الذكاء في مهنتنا؟ أعرف جيدًا أن لدي من القدرات ما يؤهلني لكي أصبح مشهورًا. فلا يوجد أي شخص في الحاضر أو الماضي على هذا القدر من العلم والموهبة في القدرة على كشف الجرائم مثلي. ولكن ما الفائدة؟ لا توجد جرائم للتحقيق فيها، أو بالأحرى، توجد بعض الجرائم غير المتقنة، بدوافع واضحة للغاية لدرجة أن أي شُرطي يمكنه حلها».

كنت لا أزال منزعجًا من طريقته المتعالية في الحديث، فرأيت أنه من الأفضل أن أغير الموضوع.

أشرتُ من النافذة على رجل قوي البنية بسيط الملبس كان يسير ببطء على الجانب الآخر من الشارع ممسكًا في يده بظرف كبير أزرق اللون، ويتفحص أرقام المباني في قلق، وتساءلت قائلًا:

– ما الذي يبحث عنه ذلك الشخص يا ترى؟

قال شيرلوك هولمز:

– أتقصد الرقيب المتقاعد من البحرية؟

فقلت في نفسي: يا له من متفاخر! فهو يعلم أنني لن أستطيع التحقق من صحة تخمينه.

كانت الأفكار بالكاد تمر في ذهني عندما تمكن الرجل الذي كنا نراقبه من رؤية الرقم الموجود على بابنا، فجرى بسرعة عابرًا الطريق باتجاهه، سمعنا طرقًا عاليًا على الباب، وصوتًا عميقًا في الأسفل ووقع خطوات ثقيلة تصعد السلم.

قال الرجل وهو يخطو داخل الغرفة ليسلم الظرف إلى صديقي: «للسيد شيرلوك هولمز».

وهنا شعرت أنني بصدد فرصة لإسقاط هذا الغرور عنه، فلعله لم يفكر في الأمر جيدًا عندما ألقى نظرة خاطفة عليه من الأعلى.

فقلت بصوت رقيق:

- هل لي أن أسألك عن مهنتك يا سيدي؟

أجاب بفظاظة:

- أنني حاجب يا سيدي، لكني لا أرتدي الزي الرسمي الخاص بي لأنه في التصليح.

فسألته مرة أخرى وأنا أنظر لرفيقي نظرة خبيثة:

وماذا كنت تعمل قبل ذلك؟

فأجاب:

- رقيبًا يا سيدي، كنت رقيبًا في قوات المشاة البحرية الملكية.

ثم وجِّه سؤالًا لهولمز وقال:

- لن ترسل ردًّا، أليس كذلك يا سيدي؟

ثم ضرب الأرض بكعبيه ورفع يده بالتحية وانصرف.

الفصل الثالث

لغز حديقة لوريستون

أعترف أن ما حدث للتوِّ كان بمنزلة إثبات لصحة نظريات رفيقي، وأنها قابلة للتطبيق العملي، فقد زاد احترامي لقدراته التحليلية بدرجة هائلة، وإن كانت هناك بعض الشكوك ما زالت تكمن في ذهني وتجعلني أشعر أن الأمر برمته يشبه عرضًا تمثيليًّا حُضِّر سلفًا بهدف إبهاري، مع أن السبب وراء محاولته إبهاري يفوق استيعابي.

وعندما نظرت إليه كان قد أنهى قراءة الرسالة التي كانت بداخل الظرف، وقد بدت نظرات عينيه شاغرةً من أي تعبيرات، وفاقدةً لبريقها المعتاد، ما يشير لأنه كان غارقًا في التفكير.

سألته:

– بالله كيف استنتجت ذلك؟

فرد بفظاظة:

– ما الذي استنتجتُه؟

– أنه رقيب متقاعد في البحرية.

قال محتدًّا:

– لا وقت لدي لمثل هذه التفاهات.

ثم ابتسم وأضاف:

– أعتذر عن وقاحتي، فقد قطعتَ عليَّ حبل أفكاري، لكن ربما كان هذا أفضل. إذن، ألم تكن حقًّا قادرًا على معرفة أنه رقيب من المشاة في الأسطول؟

– بالطبع لا.

– إن معرفة الأمر أكثر سهولة من شرحه. فإذا طُلِب منك إثبات أن حاصل جمع اثنين واثنين يساوي أربعة، فقد تجد بعض الصعوبة في الأمر، مع أنك متأكد تمامًا من هذه الحقيقة. حتى وهو في الجهة المقابلة من الشارع، استطعتُ أن أرى الوشم الكبير الذي كان على ظهر يده على هيئة مرساة زرقاء، والذي أكد لي أن له علاقة بالبحر، وبما أن له مشية عسكرية وسوالف جانبية منسَّقة، نكون قد توصلنا إلى أنه من البحرية. وكان واضحًا من خلال رأسه المرفوع والطريقة التي يُؤرجح بها عصاه أنه شخصية قيادية، وأنه معتدٌّ بنفسه بدرجة كبيرة، بالإضافة إلى أنه رجل رزين ومحترم، ويبدو في منتصف العمر من قسمات وجهه، كل تلك الحقائق دلتني على أنه رقيب بحري.

– مدهش، لقد ذُهلت حقًّا!

قال هولمز وقد بدا لي من تعبيرات وجهه أنه سُرَّ بدهشتي الواضحة وإعجابي الشديد:

– إنه أمرٌ عادي، لقد قلت للتوِّ إنه لم يعد هناك مجرمون، لكن من الواضح أني كنت مخطئًا، انظر إلى هذا.

أعطاني الورقة التي أحضرها الحاجب، فألقيت عليها نظرة وصِحت قائلًا:

– يا إلهي، إنه أمر مريع!

علَّق بهدوء:

– إن الأمر يبدو خارجًا عن المألوف بطريقة ما، هل تمانع أن تقرأها لي جَهرًا؟

وهذا ما قرأته:

«عزيزي السيد شيرلوك هولمز:

لقد وقع حادث مروع أثناء الليل في (3) شارع حدائق لوريستون، قبالة جادة بريكستون. فقد رأى أحد رجالنا خلال فترة مناوبته ضوءًا ما هناك نحو الساعة الثانية صباحًا. وبما أن المنزل كان خاويًا، انتابه الشك أن هناك شيئًا غريبًا يحدث، وعندما اقترب وجد الباب مفتوحًا فدخل البيت، وعثر في الغرفة الأمامية – والتي كانت خالية تمامًا من الأثاث – على جثة رجل نبيل يرتدي ملابس فاخرة، وفي جيبه بطاقات تحمل اسم «إينوك ج. دربر، كليفلاند، أوهايو، الولايات المتحدة الأمريكية»، لم يكن هناك سرقة، ولا يوجد أي دليل يشير إلى الطريقة التي لقي بها الرجل حتفه. كانت هناك آثار دم في الغرفة، لكن الجثة كانت تخلو من أي جروح. نحن في حيرة بشأن كيفية دخوله لهذا المنزل الخاوي، في الحقيقة إن الأمر برمته مُحيِّرٌ. إذا استطعت القدوم إلى المنزل في أي وقت قبل الثانية عشرة فسوف تجدني هناك. لقد تركت كل شيء على حاله حتى أسمع منك. وإذا كنت غير قادر على المجيء، فسوف أقدم لك تفاصيل أوفى، وسيكون لطفًا كبيرًا منك لو تفضلت عليَّ بإبداء رأيك.

المخلص: توبياس جريجسون».

قال رفيقي:

– جريجسون هو أذكى محققي شرطة سكوتلاند يارد، هو وليستراد يمكن اعتبارهما أفضل السيئين، فكلاهما سريع ونشيط إلا أن أساليبهما تقليدية بدرجة مريعة، بالإضافة إلى أن كلًّا منهما متحفز للآخر، ويَغِيرُ كل واحد من الآخر وكأنهما فتاتان تتنافسان على مسابقة للجمال، فسوف يكون هناك بعض التسلية لو كُلِّف الاثنان بالتحقيق معًا في هذه القضية.

كنت مندهشًا من الطريقة الهادئة التي تكلم بها حول الأمر، فصِحت فيه قائلًا:

– بالتأكيد لا يوجد وقت لإهداره، فهل أذهب وأطلب لك عربة أجرة؟

– لست واثقًا من رغبتي في الذهاب، ففي بعض الأحيان أكون أكثر الناس كسلًا على وجه الأرض، وأحيانًا أخرى أكون نشيطًا بما يكفي.

– لماذا؟! إنها الفرصة التي كنت تتوق إليها.

– يا صديقي العزيز، ماذا قد يهمني في الأمر؟ حتى إذا افترضنا أنني كشفت المسألة برمتها، فمن المؤكد أن جريجسون وليستراد وزملاءهما هم من سينالون كل الفضل، وهذا بسبب أنني لا أعمل بصفة

رسمية.

– لكنه ترجاك لكي تساعده.

– نعم، هو يعلم أنني متفوق عليه ويريد إظهار ذلك لي، لكنه قد يقطع لسانه قبل أن يعترف بذلك إلى شخص آخر. على كل حال، يمكننا أن نذهب ونلقي نظرة، سأعمل على حلها بنفسي، فعلى أقل تقدير سأحظى بفرصة لكي أسخر منهما. هيا بنا!

ارتدى معطفه وبدأ يتصرف بطريقة ظهر معها أنه قد استعاد نشاطه من بعد حالة اللامبالاة التي كانت تتملكه. وقال:

– أحضِر قبعتك.

– أتريدني أن أذهب معك؟

– نعم، لو لم يكن لديك شيء أفضل لتفعله.

وبعد دقيقة كنا معًا في عربة أجرة متجهَين بسرعة إلى شارع بريكستون.

كان صباحًا ضبابيًّا غائمًا وبدا لون أسطح المنازل داكنًا وكأنها مغطاة بسُتر معتمة، فبدت كانعكاس للشوارع الموحلة في الأسفل. كان رفيقي في أفضل حالاته المعنوية وأخذ يثرثر حول مدينة كريمونا وآلات الكمان التي تُصنع فيها، ويقارن بين أنواع الكمانات المختلفة مثل ستراديفاريوس وأماتي، أما أنا فكنت صامتًا؛ لما شعرت به من كآبة بسبب الطقس السيئ، وطبيعة العمل الكئيب الذي انخرطنا فيه.

قلت أخيرًا، مقاطعًا خُطبَة هولمز حول الموسيقى:

– لا يبدو أنك تولي اهتمامًا للمسألة التي نحن بصدد دراستها.

– ليس لدينا بيانات عنها حتى الآن، وإنه لخطأ كبير أن تبدأ بالتنظير قبل امتلاك كل الأدلة، فهذا بإمكانه أن يجعلك متحيِّزًا في حكمك على الأمر.

فقلت له مشيرًا بإصبعي:

–سوف تحصل على البيانات قريبًا، ها هو شارع بريكستون، وذلك هو المنزل إن لم أكن مخطئًا.

– إذن هو كذلك، توقف أيها السائق، توقف!

كنا ما زلنا على بعد مئة ياردة تقريبًا، لكنه أصر على أن ننزل ونكمل رحلتنا سيرًا على الأقدام.

كان للمنزل رقم (3) شارع حدائق لورستون مظهر يوحي بالرهبة وبدا كنذير شؤم. إنه واحد من أربعة منازل تقع على بعد مسافة قصيرة من الشارع، اثنان منهما مسكونان، أما الآخران فشاغران. يتكون المنزل الأخير من ثلاثة طوابق، وله نوافذ كئيبة وموحشة، باستثناء لافتات «للإيجار» التي انتشرت على الزجاج المعتم لهذه النوافذ الخالية. ثمة حديقة صغيرة تحوي مجموعةً من النباتات الشاحبة المتناثرة تفصل بين البيوت والشارع الذي أمامها، يقطعها ممر ضيق مصفر اللون مفروش بخليط من الطين والحصى. كان المكان كله موحلًا؛ بسبب الأمطار التي تساقطت طوال ليلة أمس. وقد أحاط بالحديقة سور من الطوب يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام ويعلوه إطار من السياج الخشبي. وكان

شرطي قوي البنية يتكئ على السور فيما تُحيط به مجموعة من المتسكعين، رافعين أعناقهم، ومادَّين أبصارهم على أمل أن يلمحوا ما يدور في الداخل.

ظننت أن شيرلوك هولمز سوف يسرع بالدخول إلى المنزل فور وصولنا، وينغمس في دراسة اللغز، لكن اتضح لي أن هذا أبعد ما يكون عما كان ينويه، فقد أخذ يتسكع على الرصيف في لا مبالاة محدقًا إلى الأرض والسماء والمنازل المقابلة والسور، وقد بدا لي في تصرفاته شيء من التَصنُّع الذي لا يناسب هذه الظروف. وبعد أن أنهى فحصه، مشى ببطء على طول الممر، أو بالأحرى على حافة العشب التي تحيط بالممر، مُثبِّتًا عينيه على الأرض. توقف مرتين؛ ثم رأيته يبتسم مطلِقًا صيحةً تدل على الرضا. كانت هناك العديد من آثار الأقدام فوق التربة الطينية الرطبة، ولكن بما أن رجال الشرطة قد مشوا فوقها ذهابًا وإيابًا فلم أتمكن من فهم كيف لرفيقي أن يأمل بالاستفادة منها بأي طريقة؟! لكنني كنت مقتنعًا تمامًا بقدرته الفائقة على الملاحظة بقوة وسرعة، ما جعلني أتأكد من كونه يرى ما لا أستطيع رؤيته.

التقينا عند باب المنزل رجلًا طويلًا له وجه شاحب وشعر كتَّاني، ويحمل دفتر ملاحظات في يده. أسرع نحو رفيقي يصافحه بحرارة:

– إنه لطف كبير منك أن تأتي، لقد تركت كل شيء على حاله.

فأجاب صديقي مشيرًا إلى الممر:

– باستثناء هذا.. فلو مر قطيع من الأبقار فوق هذا الممر، لم يكن ليسبب كل هذا القدر من الفوضى! لا شك إذن أنك توصلت حقًّا لاستنتاجك الخاص قبل أن تسمح بحدوث ذلك يا جريجسون.

قال المحقق مراوِغًا:

– كان لدي الكثير لأفعله داخل المنزل، فاعتمدت على زميلي السيد ليستراد في مراقبة المكان من الخارج.

نظر إليَّ هولمز ورفع حاجبَيه ساخرًا وقال:

– بوجود شخصين مثلك أنت وليستراد هنا، لن يبقى الكثير ليكتشفه طرف ثالث.

شعر جريجسون بالرضا عن نفسه وفرك يديه قائلًا:

– أعتقد أننا فعلنا كل ما بوسعنا. إنها قضية غريبة، وكنت أعرف أنك تميل لمثل هذا النوع من القضايا.

سأله شيرلوك هولمز:

– ألم تأتِ إلى هنا في عربة أجرة؟

– لا سيدي.

– ولا ليستراد؟

– لا سيدي.

– إذن دعنا ندخل ونلقي نظرة على الغرفة.

وبعد هذا السؤال الغريب دخل هولمز، وتبعه جريجسون الذي بدا على وجهه الذهول.

دخلنا إلى ممر قصير بأرضية خشبية مليء بالغبار، يؤدي إلى المطبخ والغرف، فُتِح بابان في نهاية الممر على اليمين واليسار، وكان من الواضح أن أحدهما كان مغلقًا لعدة أسابيع، أما الباب الآخر فيخص غرفة الطعام حيث وقعت الجريمة الغامضة. دخل هولمز إلى الغرفة وتبعتُه بالدخول، وعندما دخلتُ شعرت بتلك الغصة في قلبي التي يثيرها حضور الموت.

كانت الغرفة مربعة وكبيرة، وبدت أكثر اتساعًا لكونها خالية من الأثاث. وكانت الجدران مزينة بورق حائط سوقي ألوانه صارخة، وعليه لطخات من العفن الفطري، وقد تمزقت شرائط كبيرة منه، وتدلت؛ فظهر لون الجص المصفر من تحتها. أما في الجهة المقابلة للباب، فكانت هناك مدفأة مبهرجة يعلوها رفٌّ من الرخام الأبيض المقلَّد، وعلى أحد أركانه بقايا شمعة حمراء. وكانت النافذة الوحيدة في الغرفة متسخة للحد الذي جعل الضوء ضبابيًّا وخافتًا، ما أضفى لونًا رماديًّا باهتًا على كل شيء، وقد زادته طبقة الغبار السميكة التي غطت الشقة بأكملها.

لم ألحظ كل هذه التفاصيل إلا فيما بعد. فقد انصبَّ اهتمامي كله أول الأمر على جثة الرجل الهامدة الممددة فوق الألواح الخشبية، وعينيه الخاليتين من أي تعبير، اللتين تحدقان إلى سقف الغرفة الباهت. بدت الجثة لرجل يبلغ من العمر نحو ثلاثة وأربعين أو أربعة وأربعين عامًا، متوسط الجسم عريض المنكبين، وله شعر أسود مجعد، ولحية قصيرة. كان يرتدي معطفًا ثقيلًا من الجوخ وصديرية وبنطالًا فاتح اللون، كان كُمَّا قميصه وأزراره نظيفةً جدًّا، كذلك كانت ملقاةً بجواره على الأرض قبعةٌ أنيقة ونظيفة. كانت يداه منقبضتين وذراعاه ممددتين إلى الخارج، بينما أطرافه السفلية متشابكة كما لو أنه أخذ يُعاني في صراعه مع الموت. بدا على وجهه الصارم ملامح الرعب والكراهية على هيئة لم أرها على وجه إنسان من قبل، فهذا الالتواء الحاقد المريع في ملامحه، مع جبهته الضيقة وأنفه الأفطس وفكه البارز، جميعها منحه مظهرًا شبيهًا بقرد بدرجة غريبة، وقد زاد الأمر غرابة وضعه الملتوي على وجه غير معتادٍ، لقد رأيت هيئات كثيرة للموت، لكنها لم تكن أكثر هولًا مما رأيته في هذه الغرفة القذرة المظلمة التي تطل على أحد الشوارع الرئيسة في ضواحي لندن.

كان ليستراد النحيف بمظهره الشبيه بالنمس واقفًا بجانب الباب، متحفزًا كعادته. حيَّاني أنا ورفيقي قائلًا:

– سوف تثير هذه القضية ضجة كبيرة، لقد رأيت الكثير من القضايا، لكن هذه تفوق كل شيء رأيته من قبل.

سأل جريجسون:

– ألا يوجد أدلة؟

– لا شيء على الإطلاق.

اقترب شيرلوك هولمز من الجثة وجثا على ركبتيه وتفحصها بعناية شديدة، ثم أشار إلى بقع الدم المنتشرة في كل مكان سائلًا:

– هل أنت متأكد أنه لا وجود لجرح؟

ردَّ كلا المحققَين:

– بكل تأكيد!

– إذن فمن المؤكد أن الدم لشخص آخر، ومن المفترض أنها دماء القاتل، لو كانت ثمة جريمة قتل قد ارتُكِبت. إنها تذكرني بالظروف المصاحبة لموت فان جانسن في أوترخت بهولندا في عام (1834)، هل تتذكر هذه القضية يا جريجسون؟

– لا يا سيدي.

– اقرأها إذن، يجب عليك ذلك بالتأكيد، فلا شيء جديد في هذا العالم، كل شيء يتكرر بطريقة ما.

وبينما كان يتحدث، كانت أصابعه الرشيقة تتحرك بخفة في كل مكان، تتحسس وتضغط وتفك الأزرار، وتتفحص الأشياء جيدًا، أما عيناه فكانتا شاردتين كعادتهما. انتهى الفحص بسرعة، لدرجة أن المرء يكاد يشك في مقدار الدقة التي أتم إجراءه بها. وأخيرًا تشمم شفتَي الميت، ثم نظر إلى نعل حذائه الجلدي اللامع وسأل:

– ألم يُحرَّك من مكانه على الإطلاق؟

– ليس أكثر مما كان ضروريًا لأغراض فحصنا.

– يمكنكم نقله إلى المشرحة الآن، فلن يفيدنا وجوده هنا أكثر من ذلك.

أحضر جريجسون نقالة وأربعة أشخاص إلى الغرفة، ومن ثم رفعوا جثة الرجل الغريب وحملوه خارجًا، وبينما كانوا يرفعونه سمعنا صوت رنين خاتم سقط وتدحرج على أرضية الغرفة، فالتقطه ليستراد وحدق إليه بعينين تملؤهما الحيرة، ثم صاح قائلًا: «لقد كانت امرأة! هذا خاتم زواج امرأة».

وضع ليستراد الخاتم في راحت يده، ومده نحونا وهو يتكلم فاجتمعنا كلنا حوله وحدقنا إليه. لم يكن هناك شك في أن الخاتم المصنوع من الذهب الخالص كان ذات يوم يزيِّن إصبع عروس ما.

قال جريجسون:

– هذا يزيد الأمور تعقيدًا، والله يعلم كيف كانت معقدة بما يكفي!

فقال هولمز:

– أمتأكد من أنه لا يبسطها؟ لن نستفيد شيئًا من التحديق إليه، ماذا وجدت في جيوبه؟

أشار جريجسون إلى مجموعة من الأشياء المكومة فوق إحدى درجات السلم السفلية، وقال: «كل ما وجدناه هنا، ساعة ذهبية رقمها (97163) من صناعة بارو[2] في لندن، وسلسلة ذهبية ثقيلة جدًّا من ماركة ألبرت، وخاتم ذهبي به رمز ماسوني، ودبوس ذهبي على شكل رأس كلب عيناه من الياقوت، ومحفظة بطاقات من الجلد الروسي بها بطاقات باسم إينوك ج. دريبر من كليفلاند والذي يتطابق مع الحروف (إ. ج. د.) المنقوشة على الكتان، لم نجد محفظة نقود، لكن وجدنا مبلغًا من المال يبلغ نحو سبعة جنيهات وثلاثة عشر بنسًا، ونسخة جيب من كتاب «ديكاميرون» لبوكاتشيو، وقد كُتب على أول صفحات الكتاب اسم جوزيف ستانجرسون، وجوابًا ورسالتَين إحداهما موجهة إلى «إ. ج. دريبر» والأخرى إلى ستانجرسون».

– ما العنوان؟

– البورصة الأمريكية في شارع ستراد، ومكتوب عليها: «تُحفظ حتى يُسألَ عنها»، وكلتا الرسالتَين من شركة جويون للسفن البخارية، وتُشيران إلى موعد إبحار سفينتَيهما من ليفربول، فمن الواضح أن هذا الرجل البائس كان على وشك العودة إلى نيويورك.

– هل قمتما بأي تحريات عن هذا الرجل المدعو ستانجرسون؟

– لقد فعلت ذلك في الحال يا سيدي، فقد أرسلت إعلانًا إلى جميع الصحف، وأرسلت أحد رجالي إلى البورصة الأمريكية، لكنه لم يعد بعد.

– هل أرسلت إلى كليفلاند؟

– لقد أرسلنا برقية هذا الصباح.

– وكيف صغتم استفساراتكم؟

– أوضحنا ما حدث ببساطة، وقلنا إننا سنكون سعداء بأي معلومات يمكنها أن تسعدنا.

– ألم تسأل عن تفاصيل حول أي نقطة بدت لك حاسمة؟

هذا فقط، لا شيء آخر؟ ألا يبدو لك أن القضية برمتها تتمحور حول شيء ما؟ ألن ترسل برقية أخرى؟

قال جريجسون بصوت مستاء:

– لقد قلت كل ما يلزم.

كان شيرلوك هولمز يضحك بصوت خافت، وبدا وكأنه على وشك الإدلاء ببعض الملاحظات عندما عاد ليستراد من الغرفة الأمامية ودخل علينا يفرك راحتَيه بغرور وثقة قائلًا: «لقد اكتشفت للتوِّ شيئًا بالغ الأهمية يا سيد جريجسون، وكان من الممكن أن نغفل عنه لو لم أقم بفحص الجدران فحصًا دقيقًا».

لمعت عينا الرجل القصير وهو يتحدث، وكان من الواضح عليه أنه يكبت إحساسه؛ بالغبطة لتفوقه على زميله، ودخل إلى الغرفة في نشاط بعدما باتت أكثر صفاءً بعد نقل نزيلها المروِّع إلى خارجها، وقال: «تعالوا إلى هنا!»

ثم أشعل عود ثقاب مستخدمًا حذاءه، ورفعه تجاه الحائط وقال وهو يشعر بالانتصار: «انظروا إلى هذا!»

كنت قد لاحظت سابقًا أن هناك أجزاء من ورق الحائط كانت ممزقة ومتدلية منه، ولكن في هذه الزاوية بالتحديد قد انتُزِعَت قطعة كبيرة منه؛ فظهر من خلفها مربع كبير من الجص الخشن مكتوب عليه كلمة واحدة بأحرف من الدماء: «RACHE».

صاح المحقق وكأنه رجلٌ استعراضيٌّ يؤدي عرضًا مسرحيًّا، قائلًا:

– ما رأيكم في هذا؟ لقد غفلنا عنها لأنها كانت في أكثر أركان الغرفة ظُلمةً، فلم يخطر ببال أحد أن يبحث هناك. لقد كتبها القاتل بدمه أو بدمها إذا كانت سيدة، انظروا إلى هذه اللطخات بسبب الدم الذي سال على الحائط! هذا يتنافى مع فكرة الانتحار على أي حال. فلماذا اختيرت هذه الزاوية بالتحديد

للكتابة عليها؟ دعوني أخبركم، انظروا إلى تلك الشمعة على رفِّ المدفأة، لقد كانت مضاءة حين وقعت الجريمة، وحين تُضاء تصبح هذه الزاوية هي الأكثر سطوعًا من الجدار، لا الأكثر إظلامًا.

سأل جريجسون باستهانة:

– وما الذي يعنيه ذلك الآن بعد أن وجدتها؟

– معناه! هذا يعني أن الكاتب كان ينوي كتابة اسم امرأة تدعى راشيل، ولكن شيئًا ما أربكه فلم يستطع أن يكمل كتابة الكلمة، وسوف تشهدون على صحة كلامي عندما يُكشَف غموض هذه القضية، إن هناك امرأة تدعى راشيل لها علاقة بالقضية. إنه من الجيد جدًّا أن تضحك يا سيد شيرلوك هولمز، فقد تكون شديد الذكاء والمهارة، لكن في النهاية سوف ترى أن الأكثر خبرة يبقى الأفضل.

فقال رفيقي الذي أثار غضبه بانفجاره في نوبة من الضحك:

– أنا حقًّا أستميحك عذرًا، من المؤكد أن لك الفضل في كونك أول من اكتشف هذا الأمر، وكما قلت، إنه يحمل العلامات التي تدل على أنه كُتِب من قِبَل الطرف الآخر في لغز ليلة أمس. لم يُتَح لي الوقت لفحص هذه الغرفة بعد، فاسمح لي أن أبدأ في فحصها الآن.

وبينما كان يتحدث أخرج من جيبه شريط قياس، وعدسة مكبرة مستديرة وكبيرة، وأخذ يتجول بهدوء في الغرفة، كان يتوقف أحيانًا ويركع أحيانًا، بل إنه استلقى على وجهه في إحدى المرات. كان شديد الانغماس في فحصه حتى بدا أنه قد نسي وجودنا معه، فكان يكلم نفسه طوال الوقت ويستمر بإطلاق الآهات والصفارات والصيحات التي تدل على التعجب أو التشجيع والأمل. وكلما كنت أراقبه كان يذكرني تلقائيًّا بكلاب صيد الثعالب الأصيلة المدربة جيدًا، حيث تندفع إلى الأمام ثم تتراجع إلى الخلف وتتخفى وتعوي بلهفة؛ حتى تعثر على الأثر المفقود. ولمدة عشرين دقيقة أو أكثر ظل يواصل البحث والقياس بدقة لتلك المسافات بين علامات لم تكن مرئية تمامًا لي، وفي بعض الأحيان كان يقوم بقياس الجدار نفسه بطريقة غير مفهومة باستخدام شريطه، وجمع كومة من الغبار بعناية كبيرة في مكان واحد ثم وضعها في مظروف. وأخيرًا قام بفحص الكلمة المكتوبة على الحائط مستخدمًا عدسته المكبرة حيث مررها على كل حرف بعناية كبيرة، وعندما انتهى من الفحص وبدا عليه الرضى أعاد الشريط والعدسة إلى جيبه.

قال هولمز مبتسمًا:

– يقولون إن العبقرية هي القدرة المطلقة على تحمل الآلام، إنه تعريف سيئ للغاية، لكنه ينطبق بكيفية ما على عمل المحققين.

أما جريجسون وليستراد فكانا يراقبان مناورات زميلهما الهاوي بقدر كبير من الفضول وبشيء من الاستهزاء أيضًا، فمن الواضح أنهما قد فشلا في فهم الحقيقة التي كنت قد بدأت في إدراكها، وهي أن أبسط الأفعال التي يقوم بها شيرلوك هولمز كانت كلها موجَّهة نحو نهاية عملية ومحددة. سأل كلاهما:

– ما رأيك في القضية يا سيدي؟

فقال صديقي بشيء من السخرية:

– أخشى أن أسرق منكما فضل حل القضية إن حاولت مساعدتكما، فإنكما تقومان بعمل جيد بدرجة ما، ولا حاجة لديكما لتدخل أي أحد، ولكن إن أطلعتُماني على مسار التحقيقات، فسوف أكون سعيدًا بتقديم أي مساعدة ممكنة، أما الآن فأنا أود التحدث إلى الشرطي الذي عثر على الجثة، هل بإمكانكما أن تعطياني اسمه وعنوانه؟

نظر ليستراد في دفتر ملاحظاته وقال: «اسمه جون رانس، إنه خارج الخدمة الآن، ولكنك ستجده في (46) ساحة أودلي، منطقة كينجتون عند بوابة المنتزه».

كتب هولمز العنوان ثم قال لي:

– تعالَ معي أيها الطبيب، علينا أن نذهب ونبحث عنه.

ثم عاد ووجَّه كلامه لكلا المحققين قائلًا:

– سأخبركما بشيء واحد قد يساعدكما في هذه القضية، إنها جريمة قتل، والقاتل رجل في مقتبل العمر، طوله يزيد عن ستة أقدام وقدماه صغيرتان مقارنة بطوله، وكان ينتعل حذاءً مربعًا له نعل خشن، ويدخن سيجارًا من نوع تريكنوبولي، وقد جاء مع ضحيته إلى هنا في عربة أجرة ذات أربع عجلات ويجرها حصان له ثلاث حدوات قديمة وواحدة جديدة في أحد حافريه الأماميين، وعلى الأرجح أن القاتل ذو وجه متورِّد، وأظافر طويلة بدرجة ملحوظة في يده اليمنى. هذه ليست سوى دلالات قليلة، ولكنها قد تساعدكما.

نظر ليستراد وجريجسون إلى بعضهما بعضًا بابتسامة يغمرها الذهول، ثم سأل ليستراد قائلًا:

– لو أن هذا الرجل قد قُتل، فكيف وقعت جريمة القتل هذه؟

فأجاب شيرلوك هولمز باقتضاب وهو يهم بالانصراف قائلًا:

– بالسُمِّ.

وعندما وصل عند باب الغرفة التفت وأضاف:

– عندي شيء آخر أقوله لك يا ليستراد، إن كلمة (RACHE) كلمة ألمانية معناها «انتقام»، لذا فلا تُضِع وقتك في البحث عن السيدة راشيل.

ثم مشى تاركًا خَصمَيه خلفه مذهولَين تمامًا.

عائلة من أشهر صانعي الساعات.

الفصل الرابع

ما أدلى به جون رانس

كانت الساعة الواحدة ظهرًا عندما تركنا المنزل رقم (3) في حدائق لوريستون، وأخذني شيرلوك هولمز إلى أقرب مكتب تلغراف حيث أرسل برقية طويلة، ثم أوقف عربة أجرة وأمر السائق أن يأخذنا إلى العنوان الذي أعطاه لنا ليستراد، ثم قال:

– في حقيقة الأمر لا شيء أفضل من أن نحصل على الأدلة من مصدرها المباشر، فمع أنني قد حسمت رأيي حول هذه القضية، إلا أنه ما زال بإمكاننا جمع أكبر قدر من المعلومات الإضافية.

فقلت له:

– إنك تثير دهشتي يا هولمز، فمن المؤكد أنك لم تكن واثقًا من كل تلك التفاصيل والمعلومات التي قدمتها مثلما تظاهرت أمامهما.

فأجابني:

– لا مجال لأي خطأ، فقد لاحظت فور وصولي أن عجلات العربة تركَت أثرًا بجانب الرصيف، وبما أن المطر لم يهطل منذ أسبوع وحتى ليلة أمس، فمن المؤكد أن هذه العجلات قد تركت هذا الأثر العميق ليلة أمس فقط، كما أن أحد حوافر الحصان صنعَت أثرًا أشد وضوحًا من الحوافر الثلاثة الأخرى، ما يشير إلى أن حدوة هذا الحافر تحديدًا جديدة، وبما أن جريجسون قال إن العربة لم تكن موجودة في الصباح، لذا فقد جلبَت هذين الشخصين لهذا المنزل أثناء الليل.

قلت له:

– يبدو من كلامك أن الأمر حقًّا بسيط للغاية، لكن ماذا عن طول الرجل؟ كيف عرفته؟

فقال:

– بنسبة تسعين في المئة، يمكنك معرفة طول الرجل من قياس المسافة بين خطواته، إنها عملية حسابية بسيطة، ومع ذلك لا داعي لأن أزعجك بالأرقام. لقد رأيت آثار خطوات الرجل على الطين في الخارج وعلى الغبار في الداخل، لذا أتاحت لي الفرصة لأتحقق من حساباتي. بالإضافة إلى أنه حين يكتب المرء على الحائط فمن الطبيعي أن تكون كتابته في مستوى نظره، وبما أن الكلمة المكتوبة كان ارتفاعها يزيد قليلًا على ستة أقدام فكانت ملاحظة ذلك أمر في غاية السهولة.

فسألته:

– وماذا عن عمره؟

فأجاب:

– حسنًا، إذا استطاع الرجل أن يقطع مسافة أربعة أقدام ونصف في خطوة واحدة دون أدنى جهد، فمن المستحيل أن يكون عجوزًا. فقد كانت هناك بركة من الوحل في ممشى الحديقة، ومن الواضح أنه عبر من فوقها؛ فإن آثار الحذاء الجلدي المستدير تشير إلى أن صاحبها مرَّ من حول البركة، أما آثار خطوات الحذاء المربع فتشير إلى أن صاحبها قام بالقفز من فوقها. لا يوجد أي غموض في الأمر، كل ما هنالك أني أضفَيتُ على الحياة العادية بعضًا من قواعد الملاحظة والاستنتاج التي أوصيتُ بها في تلك المقالة التي قرأتَها. هل من شيء آخر يحيرك؟

فقلت:

– نعم، طول الأظافر ونوع السيجار التريكنوبولي.

– لقد كتب الرجل هذه الكلمة على الجدار بعد أن غمس سبابته في الدم، وعندما فحصتُها بعدستي، لاحظتُ أنه خدش الجص قليلًا أثناء الكتابة، وهذا ما لم يكن ليحدث لو أن أظافره كانت قصيرة ومُقلَّمة. أما بالنسبة لنوع السيجار، فحين جمعتُ بعض الرماد المتناثر من أرضية الغرفة لاحظتُ أنه كان داكنًا وعبارة عن قشور ناعمة، ومثل هذا الرماد يكون فقط ناتجًا عن تدخين التريكنوبولي، فقد أجريت دراسة خاصة عن رماد السجائر، بل إنني في واقع الأمر كتبتُ بحثًا مفصلًا حول هذا الموضوع. إنني أتملق قدرتي على تمييز رماد أي نوع من أنواع السيجار المعروفة بنظرة واحدة، ومثل هذه التفاصيل فقط هي ما يميز المحقق الماهر عن المحققين من أمثال جريجسون وليستراد.

– والوجه المتورِّد؟

– آه، كان ذلك تصريحًا أكثر جرأة، ومع أنني لا أشك في صحته، لكن يجب عليك ألا تسألني عن ذلك في هذه المرحلة من القضية.

وضعت يدي على جبيني وقلت له:

– أشعر بدوار، فكلما فكرت في الأمر، شعرتُ بأنه يزداد غموضًا. فكيف دخل هذان الرجلان إلى المنزل لو كانا رجلين في الأساس؟ وما الذي حدث للسائق الذي أوصلهما؟ وكيف يمكن لإنسان أن يرغم آخر على تناول السُّم؟ ومن أين أتى الدم؟ ماذا كان هدف القاتل إن لم يكن هدفه السرقة؟ وكيف جِيء بخاتم المرأة إلى هناك؟ وفوق كل ذلك.. لماذا قام الرجل الثاني بكتابة الكلمة الألمانية (RACHE) قبل رحيله؟ أعترف أنني أعجز عن التوفيق بين كل هذه الحقائق.

ابتسم رفيقي باستحسان وقال:

– إنك تلخص جميع معضلات الموقف بإيجاز ودقة. فما زال الغموض يحيط بالكثير من جوانب القضية، مع أنني كونت رأيي بناء على الحقائق الرئيسة. أما عن اكتشاف ليستراد المسكين، فقد كان مجرد تضليل هدفه وضع الشرطة على مسار خاطئ، وذلك من خلال اتهام الاشتراكية والجماعات السرية، وترجيح احتمالية كونهم هم من وراء الجريمة. لكن من ارتكبها ليس ألمانيًا بالنظر للكيفية التي كُتب بها حرف (A) على الطريقة الألمانية، فالألماني الأصيل الآن صار يكتب الأحرف على الطريقة اللاتينية، إذن فمَن كتبها ليس سوى مُزيِّف أخرق يبالغ في تأدية دوره، وهي مجرد خدعة لتحويل التحقيق إلى مسارٍ خاطئ. لن أخبرك بالمزيد حول هذه القضية أيها الطبيب، فكما تعلم، الساحر لن

ينال الإعجاب لو قام بشرح خدعته، وإذا قمت باستعراض طريقة عملي أمامك، لربما تصل إلى استنتاج مفاده أنني شخص عادي جدًّا في نهاية المطاف.

فأجبته قائلًا:

– لن أفعل ذلك أبدًا، لقد جعلت التحرِّي يبدو أقرب لعلم دقيق، وهو شيء لم يحدث من قبل في هذا العالم!

أشرق وجه رفيقي سرورًا من كلامي، وبالطريقة الجادة التي تحدثتُ بها، فقد لاحظتُ حقًّا أنه كان حساسًا للغاية تجاه الإطراء الذي يخص طريقة عمله، تمامًا كفتاة تفرح بإطراء جمالها.

قال:

– سأخبرك بشيء آخر، لقد جاء صاحب الحذاء الجلدي اللامع وصاحب الحذاء المربع معًا في ذات العربة، ومشَيَا على الممر معًا كصديقين، وكان أحدهما يشبك ذراعه بذراع الآخر على الأرجح، وعندما دخلا أخذا يقطعان الغرفة جيئة وذهابًا، أو بالأحرى لقد وقف صاحب الحذاء الجلدي اللامع ساكنًا وقتما كان صاحب الحذاء المربع يذرع الغرفة. استطعتُ معرفة ذلك من آثار الخطوات الموجودة على الغبار، واستنبطتُ من التزايد في اتساع خطواته أن انفعاله راح يتزايد أكثر فأكثر حينما كان يمشي. فقد كان يتحدث طوال الوقت ويتحرك في حالة من الغضب، ثم حدثت المأساة. لقد أخبرتك بكل ما أعرفه الآن، أما الباقي فهو مجرد ظن وتخمين، ويمكننا أن نعدَّ هذه التفاصيل أساسًا جيدًا للبدء منه. يجب علينا أن نسرع لأنني أرغب في حضور حفلة هالي الموسيقية، للاستماع إلى نورمان نيرودا مساء اليوم.

كانت هذه المحادثة تدور بيننا حينما كانت العربة تشق طريقها عبر سلسلة طويلة من الشوارع القذرة والحارات الموحشة، وفي أكثرها قذارة ووحشة توقف سائقنا فجأة، وأشار إلى شق ضيق في صفٍّ من الطوب وقال: ها هي ساحة أودلي هناك، وسوف تجداننني في انتظاركما هنا حين تعودان.

لم تكن ساحة أودلي بالمنطقة الساحرة، فقد قادنا الممر الضيق إلى ساحة مرصوفة بالبلاط تحاوطها مساكن قذرة من جوانبها الأربعة. شققنا طريقنا بين جماعات من الأطفال القذرين، وبين صفوف من الملاءات المعلقة من قماش الكتان الباهت، حتى وصلنا إلى المنزل رقم (46)، الذي كان بابه مزينًا بلافتة نحاسية صغيرة منقوش عليها اسم رانس. ولما سألنا عليه وجدناه نائمًا في سريره، فاصطُحِبنا إلى صالة استقبال صغيرة؛ لننتظر مجيئه. جاء الرجل في الحال وبدا منزعجًا قليلًا؛ لأننا قطعنا عليه قيلولته، وقال: «لقد قدمت تقريري إلى مكتب الشرطة».

فأخرج هولمز من جيبه قطعة نقود ذهبية وأخذ يتلاعب بها بين أصابعه وهو يفكر، ثم قال:

– كنا نفكر أنه من الأفضل أن نسمعك شخصيًّا تروي كل ما حدث.

فأجاب الشرطي وعيناه على قطعة النقود الذهبية:

– سأكون سعيدًا للغاية بأن أخبركما بكل ما أعرفه.

قال هولمز:

- حدثنا فقط بطريقتك الخاصة عن كل ما جرى بالضبط.

جلس رانس على الأريكة وعقد حاجبيه، وبدا عازمًا على ألا يغفل أي شيء في سرده لما حدث، وقال:

- سأقص عليكما كل شيء منذ البداية، إن وقتي في المناوبة من العاشرة مساءً وحتى السادسة صباحًا، وفي نحو الساعة الحادية عشرة حدث شجار في حانة «وايت هارت»، وباستثناء ذلك كان كل شيء هادئًا بما فيه الكفاية أثناء تأديتي للخدمة. وفي الساعة الواحدة صباحًا بدأ المطر في الهطول، والتقيتُ بهاري مورشر وهو الشرطي المسؤول عن حراسة منطقة هولاند جروف، ووقفنا نتحدث عند ناصية شارع هنرييتا، وبعدما تحدثنا لبعض الوقت وفي نحو الساعة الثانية، فكرتُ أنه من الأفضل أن ألقي نظرة؛ لأطمئن على أن الأمن مستتب، ويسير على ما يرام في شارع بريكستون. كان الشارع موحلًا وموحشًا وخاليًا تمامًا من الناس، باستثناء مرور عربة أجرة أو اثنتين من جواري. وبينما كنت أتمشى وأفكر في أنه كم من الجيد لو أستطيع الحصول على أربع كؤوس من الجين[3] الساخن، لمحت ضوءًا يومض في نافذة ذلك المنزل، وكنت أعلم أن هذين المنزلين في حدائق لورستون خاليان من السكان، وذلك بسبب أن مالكهما يرفض توصيل المجاري إليهما، كما أن المستأجر الأخير الذي كان يعيش في أحدهما مات بسبب إصابته بحمى التيفوئيد، فأحسست أن هناك شيئًا ما يدعو للشك، فبدأت أقترب من المنزل وعندما وصلت أمام الباب..

قاطعه رفيقي قائلًا:

- لقد توقفتَ ومن ثم عدت إلى بوابة الحديقة، فلماذا فعلت ذلك؟

فانتفض رانس من مكانه بعنف وحدق إلى شيرلوك هولمز وبدت على ملامحه دهشة بالغة، وقال:

- هذا صحيح يا سيدي، الله وحده يعلم ذلك، كيف تمكنت من معرفة هذا؟! عندما وصلت إلى الباب بدا المكان هادئًا جدًّا ومهجورًا، للحد الذي جعلني أتمنى وجود شخص معي، فقد خفت أن يظهر لي شبح الرجل الذي مات بالتيفوئيد، ففكرت أن أرجع إلى بوابة الحديقة؛ لأرى إن كان بإمكاني رؤية ضوء مصباح مورشر، ولكني لم أرَ أي أثرٍ له، ولا لأي شخص آخر.

- ألم يكن هناك أحد في الشارع؟

- لم يكن هناك أي مخلوق يا سيدي ولا حتى كلب عابر، حاولت أن أستجمع نفسي وعدتُ إلى المنزل المهجور وفتحت الباب، كان الهدوء يسود المكان في الداخل، فذهبت تجاه الغرفة حيث رأيت النور، وحين دخلتُ الغرفة وجدتُ شمعة مضاءة فوق رفِّ المدفأة، كانت شمعة حمراء، وعلى ضوئها رأيت..

- نعم، أعرف كل ما رأيته هناك، لقد أخذت تمشي في الغرفة جيئة وذهابًا، ومن ثم ركعت بجانب الجثة، ثم مشيتَ وحاولت فتح باب المطبخ، ثم..

قفز جون رانس واقفًا على قدميه بوجه يملؤه الذعر، وعينين يملؤهما الشك، وصاح قائلًا:

- هل كنت مختبئًا في حينها لتراقب كل ذلك؟ يبدو لي أنك تعرف أكثر بكثير مما يُفترض.

ضحك هولمز وألقى ببطاقته على الطاولة أمام الشرطي وقال:

– لا تعتقلني بتهمة القتل، فأنا أحد كلاب الصيد، ولست الذئب المعتدي، يمكنك التأكد من السيد جريجسون أو السيد ليستراد، على أي حال أكمل حديثك، ماذا فعلت بعد ذلك؟

عاد رانس إلى مقعده، ولكن تعابير الحيرة لم تترك وجهه واستأنف حديثه قائلًا:

– عدتُ إلى البوابة مرة أخرى وأطلقت صافرتي والتي جاءت بمورشر، واثنين آخرين إلى المكان.

– أكان الشارع خاليًا عندئذ؟

– حسنًا لقد كان كذلك، كان خاليًا من أي شخص يمكن الاستعانة به.

– ماذا تعني بذلك؟

ابتسم الشرطي ابتسامة عريضة وقال:

– لقد رأيت الكثير من الرجال المخمورين في حياتي، ولكني لم أرَ قط أحدًا في حالة أسوأ من هذا الرجل السكير من قبل. كان واقفًا عند البوابة حين خرجت، وكان يستند إلى السور ويغني بأعلى صوته ولم يكن قادرًا على الوقوف معتدلًا، ناهيك بالمساعدة.

سأل شيرلوك هولمز:

– أي نوع من الرجال كان؟

قال جون رانس وقد بدا عليه الانزعاج بعض الشيء من هذا الاستطراد:

– لقد كان رجلًا مخمورًا على نحو غير مألوف، كان سيجد نفسه في مركز الشرطة لو لم نكن منشغلين.

سأله هولمز بنفاد صبر:

– وماذا عن ملامح وجهه.. ملابسه.. ألم تلاحظها؟

أجاب رانس:

– نعم أظن أنني لاحظتها، فقد ساعدته أنا ومورشر، لقد كان شابًّا طويلًا ووجهه متورِّد وكان الجزء السفلي من وجهه ملفوفًا بوشاح أو ما شابه.

فصاح هولمز قائلًا:

– هذا يفي بالغرض، ماذا حلَّ به؟

قال الشرطي بصوت حزين:

– لقد كنا مشغولين بما يكفي فلم يكن لدينا متسع من الوقت لمساعدته، لكني أراهن أنه استطاع العودة إلى بيته بأمان.

– وماذا كان يرتدي؟

– معطفًا بنيًّا.

– هل كان يحمل سوطًا في يده؟

– سوط؟! لا.

فتمتم رفيقي:

– لا بد أنه تركه وراءه إذن. ألم ترَ أو تسمع صوت عربة أجرة بعد ذلك؟

أجابه رانس:

– لا.

هبَّ رفيقي واقفًا وأخذ قبعته ونظر إلى رانس وقال:

– هذه العملة الذهبية من أجلك، أخشى أنك قد لا تحصل على ترقية أبدًا في مراتب الشرطة يا رانس، فيجب أن يكون لرأسك هذا فائدة، وليس مجرد شكل، كان من الممكن أن تحصل على رتبة رقيب ليلة أمس، فإن الرجل الذي حملته بين يديك هو مفتاح هذا اللغز، وهو الذي نبحث عنه، على كل حال لا فائدة من الجدال حول هذا الموضوع الآن، لقد أخبرتك بحقيقة الأمر. هيا بنا أيها الطبيب.

ركبنا معًا في عربة أجرة وانطلقنا تاركين خلفنا الشرطي مرتابًا وقد بدا عليه الانزعاج. وبينما نحن في طريقنا عائدَين لمسكننا، قال هولمز بمرارة:

– يا له من أحمق كبير! لقد كانت هناك فرصة ذهبية بين يديه، ولكنه أضاعها بسبب حماقته.

– ما زلت لا أفهم شيئًا، صحيح أن مواصفات ذلك الرجل تتطابق مع المواصفات التي استنتجتَها عن الطرف الثاني في اللغز، لكني لا أفهم سبب عودته إلى المنزل بعد أن خرج منه، ليس هذا من عادة المجرمين.

– الخاتم يا رجل، لقد عاد من أجل الخاتم، إذا لم نتمكن من القبض عليه يمكنا أن نستخدم الخاتم كطُعم في صنارتنا. سوف أمسك به أيها الطبيب، أراهنك أني سأفعل! يتوجب عليَّ شكرك، أشكرك على كل شيء، فربما لم أكن لأذهب إلى هناك لولاك. وكنتُ سأفوت على نفسي فرصة أروع دراسة صادفتها على الإطلاق: دراسة في اللون القرمزي، أليس كذلك؟ دعنا نستخدم بعض المصطلحات الفنية، فإن جريمة القتل تشبه خيطًا قُرمزي اللون متشابكًا مع خيوط الحياة الكثيرة المتداخلة عديمة اللون، وواجبنا هو كشف ذلك الخيط وعزله وفضح كل بوصة فيه. أما الآن لنذهب لتناول الغداء، ومن ثم إلى الحفل مباشرة؛ للاستماع إلى عزف نورمان نيرودا البديع، فهناك مقطوعة صغيرة لشوبان تعزفها بمهارة مبهرة. ترا-لا-لا-ليرا-ليرا-لاي.

أسند ظهره للخلف داخل العربة، وأخذ يردد هذه الألحان مثل طائر مُغرِّد، ريثما جلستُ أتأمل قدرات العقل البشري الخارقة.

نوع من الخمور.

الفصل الخامس

الزائر المريب

كان المجهود الذي بذلناه صباح اليوم أكثر من أن تتحمله صحتي الضعيفة، فشعرت بإرهاق شديد في فترة ما بعد الظهيرة، وبعد مغادرة هولمز لحضور الحفلة الموسيقية، استلقيت على الأريكة وحاولت أن أستغرق في النوم لساعتين، لكنها كانت محاولة غير مجدية، فقد كان ذهني مشغولًا بكل ما حدث واحتشدت به خيالات غريبة وتكهنات كثيرة، فكلما أغمضت عيني يتمثل أمامي وجه القتيل المشوه الذي يشبه وجه القرد، لقد ترك ذلك الوجه انطباعًا مشؤومًا في نفسي لدرجة أنني لا أملك سوى الشعور بالامتنان لمن أزاح صاحبها عن العالم. فلو تجسدت أبشع الملامح البشرية وأكثرها بذاءة لكانت بالتأكيد هذه الخاصة بإينوك ج. درايبر من كليفلاند. ما زلت أدرك أنه يجب تحقيق العدالة، وأن فساد الضحية لا يبرر مقتلها في نظر القانون.

وكلما فكرت في الأمر أكثر، كانت فرضية رفيقي بأن الرجل قد تسمم تبدو لي بارعة، فقد تذكرت كيف شم شفتَيه ولا شك في أنه اكتشف شيئًا ساهم في وصوله لاستنتاج كهذا. ثم إن لم يكن السم، فما الذي تسبب في قتله إذن؟ فلا توجد به أي جروح، ولا علامات تدل على خنقه، ولكن من ناحية أخرى، لمن كان كل هذا الدم الذي سال على أرضية الغرفة. فلا يوجد أي علامات تدل على نشوب عراك أو حتى علامات تدل على مقاومة الضحية أو امتلاكها لأي سلاح بإمكانه أن يصيب الخصم. وما دام بقيت كل هذه الأسئلة من دون إجابات، فلن يكون النوم بالأمر السهل سواء لي أو لهولمز. لقد أقنعني أسلوبه الهادئ المليء بالثقة أنه قد توصل حقًّا لنظرية تفسر جميع الحقائق، ولكنني لست قادرًا على تخمينها في الوقت الحالي.

عاد هولمز في وقت متأخر جدًّا، وكنت أعلم أن الحفل لم يكن ليؤخره كل هذا الوقت. كان العشاء جاهزًا على المائدة قبل مجيئه، فقال وهو يجلس على مقعده:

– كان الحفل رائعًا، أتذكر أقوال داروين عن الموسيقا؟ إنه يدعي أن الجنس البشري عرف الموسيقا وأحبها من قبل معرفة الكلام بوقت طويل! ربما لهذا السبب نتأثر بها على نحو مرهف وبدرجة كبيرة. أعتقد أن في أعماق أرواحنا توجد ذكريات غامضة حول تلك الأزمان البعيدة، حيث كان العالم ما يزال طفلًا صغيرًا.

فقلت معلِّقًا:

– إنها فكرة واسعة الأفق إلى حد ما.

فأجابني:

– يجب أن تكون أفكار المرء واسعة الأفق تمامًا مثل الطبيعة، هذا إذا أراد تفسير الطبيعة. ثم سألني قائلًا:

– ما الأمر؟ إنك لست على عادتك، هل أزعجتك قضية شارع بريكستون؟

فقلتُ:

– في حقيقة الأمر، لقد أثرت عليَّ حقًّا، يجب أن أكون أكثر صلابة بعد التجارب التي مررت بها في أفغانستان، فقد رأيت رفقائي مقطعين إلى أشلاء في معركة مايواند دون أن أفقد أعصابي.

– أتفهم ذلك، هناك لغز حول هذه القضية يثير الخيال، وحيث لا يوجد خيال لا وجود للرعب. هل قرأت صحيفة المساء؟

– لا.

– إنها تعطي تقريرًا جيدًا نوعًا ما عن القضية، لكن التقرير لم يذكر حقيقة أنه عندما رفعت جثة القتيل، لنقله إلى الخارج، سقط خاتم زواج امرأة على الأرض، وهذا أمر جيد.

– لماذا؟

– انظر إلى هذا الإعلان، لقد أرسلت نسخة منه إلى كل الصحف صباح اليوم بعد زيارتنا إلى مكان الجريمة مباشرة.

مرر لي الصحيفة ونظرت إلى المكان المشار إليه، كان أول إعلان في عمود عنوانه «أشياء عُثر عليها». كُتب فيه: «عُثر على خاتم زواج ذهبي صباح اليوم في شارع بريكستون، بين حانة وايت هارت وهولاند جروف. وعلى صاحبه أن يتوجه إلى الدكتور واتسون في (221ب)، شارع بيكر، بين الساعة الثامنة والتاسعة هذا المساء».

قال هولمز:

– اعذرني لأنني استخدمت اسمك، فلو استخدمت اسمي سيعرف بعض رجال الشرطة الحمقى بالأمر، وسيرغبون في التدخل في المسألة.

فأجبته قائلًا:

– لا بأس، ولكن لنفترض أن أحدًا جاء ليطلب الخاتم، ماذا سأفعل في ذلك الحين؟ إنه ليس معي!

مدَّ إليَّ يده بخاتم وقال:

– هذا سيفي بالغرض، إنه نسخة طبق الأصل تقريبًا.

– ومن الذي تتوقع منه أن يستجيب لإعلانك؟

– الرجل ذو المعطف البنيِّ، صديقنا ذو الوجه المتورِّد صاحب الحذاء المربع. إذا لم يأتِ بنفسه فسوف يرسل شريكًا له.

– ألن يعتبر مجيئه إلى هنا أمرًا خطيرًا؟

– لا على الإطلاق، فإذا كانت وجهة نظري في القضية صحيحة، ولدي كل الأسباب التي تجعلني أؤمن أنها كذلك، فإن ذلك الرجل قد يخاطر بأي شيء مقابل أن يستعيد الخاتم، فحسب اعتقادي فإنه قد أوقع الخاتم وهو ينحني فوق جثة دريبر، ولم ينتبه لذلك في حينها، وبعد أن غادر المنزل اكتشف أنه

فقده، فعاد مسرعًا ليجد أن الشرطة قد حضرت إلى المنزل بسبب حماقته التي جعلته يترك الشمعة مضاءة، فاضطر لأن يتظاهر بأنه مخمور لكيلا يثير الشكوك حول ظهوره عند البوابة. فلو وضعت نفسك مكانه وفكرت في الأمر، ستجده يعتقد بأنه قد فقد الخاتم في الطريق بعد مغادرته المنزل، فمن الطبيعي أن يبحث في الصحف المسائية على أمل أن يراه في أحد الأعمدة ضمن الأشياء التي عُثر عليها. سوف تقع عينه على الإعلان بالتأكيد، وسوف يطير فرحًا. فلماذا يخشى الوقوع في الفخ؟ فمن وجهة نظره، لا يوجد رابط بين العثور على الخاتم وجريمة القتل، أنا متأكد أنه سوف يأتي، ولسوف تراه في غضون ساعة.

سألته:

– ومن ثم؟

– ومن ثم يمكنك أن تترك الأمر لي بعد ذلك. هل معك سلاح؟

– معي مسدس الخدمة القديم الخاص بي، وبعض الخراطيش.

– من الأفضل أن تقوم بتنظيفه وتعبئته، فمن غير المستبعَد أن يكون الرجل متهوِّرًا، ومع أنني سوف آخذه على حين غفلة، إلا أننا يجب أن نكون مستعدَّين لأي شيء.

ذهبت إلى غرفتي واتبعتُ نصيحته، وعندما عدتُ بالمسدس، كانت الطاولة قد نُظفت، أما هولمز فقد بدأ في مداعبة أوتار كمانه. وقال لي عندما دخلت:

– الحبكة تتماسك، وتزداد تعقيدًا، لقد تلقيتُ للتوِّ ردًّا على البرقية التي أرسلتها إلى أمريكا، واتضح لي أن رأيي في القضية صائب تمامًا.

فسألته متلهفًا:

– وما هو؟

فقال:

– إن كماني بحاجة إلى أوتار جديدة، ضع مسدسك في جيبك. وحين يجيء الرجل تحدث إليه بطريقة عادية، واترك الباقي عليَّ، ولا تحدق إليه حتى لا يخاف.

قلتُ وأنا أنظر في ساعتي:

– إنها الساعة الثامنة الآن.

– نعم، من المحتمل أن يصل في غصون بضع دقائق، افتح الباب قليلًا وضع المفتاح في الداخل، نعم هكذا، شكرًا لك. انظر إلى هذا الكتاب القديم الذي التقطتُه من كشك بالأمس، عنوانه: «القانون الدولي»، إنه كتاب باللغة اللاتينية نُشر في ليبج ببلجيكا عام (1642م). وكان رأس تشارلز لا يزال ثابتًا فوق كتفَيه عندما صُودِر هذا الكتاب الصغير ذو الغلاف البني.

– ومن الذي طبع الكتاب؟

– إنه فيليب دي كروي، ولكن أيًّا كان طبعه، فقد كان مكتوبًا على أولى صفحاته بحبر باهت جدًّا أنه من مؤلفات جوليولمي وايت، أتساءل من كان ويليام وايت، أظن أنه كان أحد المحامين البرغماتيين من

القرن السابع عشر، فإن أغلب كتاباته كان يغلب عليها الطابع القانوني. أعتقد أن زائرنا قد جاء.

وبينما كان يتحدث دوَّى صوت رنين جرس حاد، فنهض شيرلوك هولمز بهدوء وحرك كرسيه باتجاه الباب، ثم سمعنا وقع خطوات الخادمة تمشي متجهة لتفتح الباب، ثم سمعنا صوتًا أجشَّ يسأل:

- هل الدكتور واتسون مقيم هنا؟

لم نتمكن من سماع ردِّ الخادمة، لكن الباب أُغلق، وبدأ أحدهم يصعد السلم. كان وقع الأقدام مضطربًا وكأن صاحبه يجر قدمَيه، وبدا هولمز متفاجئًا وهو يتسمَّع وقع الأقدام الذي كان يقترب ببطء على طول الممر، ثم سمعنا طرقًا ضعيفًا على الباب.

فصِحتُ قائلًا:

- تفضل بالدخول.

وبدلًا من الرجل العنيف الذي توقعنا مجيئه، دخلت امرأة عجوز تغطي التجاعيد وجهها تعرج إلى داخل الغرفة، وبدا عليها أن الضوء القوي قد أزعج عينيها، وبعد أن ألقت علينا التحية وقفت تنظر إلينا وهي ترمش بعينيها المشوشتين، ثم أخذت تفتش في جيوبها بأصابع يدها المتوترة المرتعشة. نظرتُ إلى رفيقي نظرة خاطفة فرأيتُ الإحباط باديًا على وجهه، وبذلتُ ما بوسعي لكي أتمالك نفسي.

أخرجت السيدة العجوز الصحيفة المسائية من جيبها وأشارت إلى الإعلان قائلةً:

- جئت من أجل هذا أيها السادة. خاتم زواج ذهبي عُثر عليه في طريق بريكستون، إنه خاتم ابنتي سالي التي تزوجت في مثل هذا الوقت في العام الماضي. يعمل زوجها مضيفًا في إحدى سفن الاتحاد، ولا أدري كيف تكون ردة فعله إذا أتى إلى المنزل ووجدها من دون خاتمها، فهو سريع الغضب وخاصة عندما يكون مخمورًا، فقد ذهبت ابنتي إلى السيرك ليلة أمس مع..

فقاطعتُها قائلًا:

- هل هذا خاتمها؟

فصاحت السيدة العجوز:

- حمدًا لله، إنه هو، ستفرح سالي للغاية هذه الليلة.

فسألتُها وأنا ألتقط قلمًا رصاصًا:

- ما عنوانك؟

- (13) شارع دنكان المتفرع من طريق هاوندسدتش. إن الطريق إليه مرهق من هنا.

فقال شيروك هولمز محتدًّا:

- لا يوجد أي سيرك هنا بين شارع بريكستون وهاوندسدتش.

فنظرت إليه السيدة العجوز بحدة وقالت:

- لقد سألني السيد عن عنواني، أما سالي فتعيش في (3) مايفيلد بليس، بيكهام.

- وما اسمك؟

– لقب عائلتي هو سوير، أما ابنتي فلقبها دنيس، فزوجها توم دنيس شاب مهذب وأنيق طالما هو في البحر، أما حين يعود إلى البر يكون دائمًا بين النساء ومحلات بيع الخمور...

أشار إليَّ رفيقي فاستجبتُ لإشارته، وقاطعت حديثها قائلًا:

– ها هو الخاتم يا سيدة سوير، من الواضح أنه يخص ابنتك ويسعدني إعادته لصاحبته.

أخذت العجوز الخاتم ووضعته في جيبها وهي تتمتم بالكثير من عبارات الشكر والامتنان، وما إن نزلت السلم حتى نهض شيرلوك هولمز ودخل إلى غرفته، وعاد منها بعد ثوانٍ قليلة مرتديًا معطفًا طويلًا فضفاضًا وربطة عنق، ثم قال في عجلة:

– سوف أتبعها، لا بد أنها شريكة في الجريمة وسوف تقودني إليه، انتظرني هنا.

نزل هولمز خلفها مسرعًا، وعندما نظرتُ من النافذة رأيتُ السيدة العجوز تسير بوهن شديد على الناحية الأخرى من الطريق، في حين كان مطاردها يتبعها على بعد مسافة قصيرة. قلت لنفسي: «إما أن تكون نظريته كلها غير صحيحة، أو أنه في طريقه الآن إلى مفتاح ذلك اللغز، ولم يكن بحاجة ليطلب مني أن أنتظر مجيئه، إذ كنت أشعر أن النوم شيء مستحيل حتى تصلني نتائج مغامرته».

كانت الساعة تقترب من التاسعة عندما خرج، ولم تكن لدي أدنى فكرة عن طول المدة التي سيمضيها في الخارج، لذا أشعلتُ غليوني وأخذتُ أتصفح رواية «مشاهد من الحياة البوهيمية للكاتب الفرنسي هنري مورجير».

كانت الساعة قد تخطت العاشرة صباحًا حين سمعتُ وقع خطوات الخادمة فيما تتجه إلى الفراش، ثم في حوالي الساعة الحادية عشرة سمعتُ وقعَ مرور صاحبة المنزل من أمام بابي بخطوات أكثر وقارًا، متجهة إلى غرفتها. كانت الساعة قد اقتربت من الثانية عشرة قبل أن أسمع صوت مفتاحه في الباب، وفور دخوله ظهرَت على وجهه أمارات عدم النجاح، ثم بدا لي وكأنه يكافح من أجل تصنع الحزن، وإذا به ينفجر في الضحك.

ثم صاح قائلًا:

– لا أريد أن يعرف رجال الشرطة بما حدث بأي صورة من الصور، فقد سخرتُ منهم كثيرًا ولا أرغب في أن ينالوا فرصةً كهذه للانتقام، فمن الواضح أنني سوف أتساوى معهم على المدى الطويل.

سألته:

– ماذا حدث؟

– حسنًا، لا أمانع في سرد هذه القصة التي تُدينني، قطعَت تلك السيدة العجوز مسافة صغيرة ثم بدأت تترنح وتتظاهر بالتعب، فتوقفَت وأشارَت إلى عربة بأربع عجلات كانت تمر من الطريق، فتعمدتُ أن أقترب منها كي أتمكن من سماع العنوان، ولكن قلقي حيال الأمر لم يكن مهمًا فقد صاحت بالعنوان بصوت عالٍ فتمكنت من سماعه من الجهة الأخرى من الشارع، «أوصلني إلى (13) شارع دانكان، هاوندستش».

ظننتُ أن الأمر حقيقي، وبعدما تأكدتُ من أنها قد ركبت، تعلقت في العربة من الوراء، وهي مهارة يجب على كل محقق أن يتقنها. حسنًا سارت العربة ولم تتوقف حتى وصلنا إلى الشارع المَعْنيِّ، فقفزتُ قبل أن تصل العربة إلى باب المنزل، وأخذتُ أتمشى بخطًى هادئة، ورأيتُ العربة وهي تتوقف أمام المنزل ونزل السائق ورأيتُه يفتح الباب ويقف أمامه مترقبًا، لكن لم يخرج أحد من العربة! وحين وصلتُ إليه كان يفتش في العربة وقد جُنَّ جنونه، وراح يلفظ بأعلى صوته بمجموعة متنوعة من أقذر الشتائم التي سمعتُها في حياتي. لم يكن هناك أثر أو علامة لأي راكب، كانت خالية تمامًا! وكنتُ أخشى أنه سيضطر للانتظار طويلًا حتى يحصل على أجرته. وعندما سألنا عن المنزل رقم (13) وجدنا أنه مِلكٌ لرجل محترم يعمل كمورِّق للجدران، يدعى كيسويك، ولما سألناه إذا كان يعرف أحدًا اسمه سوير أو دنيس أجاب بأنه لم يسمع بهما من قبل.

فصحتُ في ذهول:

– من المؤكد أنك لا تعني ما تقول! أتعني أن تلك المرأة العجوز المترنحة الواهنة كانت قادرة على أن تقفز من العربة أثناء تحركها دون أن تراها أنت أو السائق؟

فقال شيرلوك هولمز محتدًّا:

– اللعنة على تلك المرأة العجوز، لقد كنا نحن العجائز؛ لأننا خُدِعنا بهذه الطريقة، لا بد أنه كان شابًّا، بل إنه شاب نشيط أيضًا، بالإضافة لكونه ممثلًا بارعًا. إن بديهته لا تضاهى، فقد كان يدرك أنه ملاحق بلا شك، واستخدم هذه الوسيلة لكي يفلت مني. يتضح من ذلك أن الرجل الذي نسعى وراءه ليس وحيدًا كما تخيلتُه، بل له أصدقاء مستعدون للمخاطرة من أجله. والآن خذ بنصيحتي واذهب إلى النوم أيها الطبيب، إذ يبدو عليك الإرهاق الشديد.

كنت حقًّا مرهقًا للغاية، لهذا نفذتُ نصيحة هولمز، تركتُه جالسًا أمام المدفأة، ولساعات طويلة من الليل كنت أسمع نحيب ألحان كمانه الحزينة الخافتة، فعلمتُ أنه لا يزال يفكر في المسألة غريبة الأطوار التي كان عازمًا على حلها.

الفصل السادس

جريجسون يستعرض قدراته

كانت صحف اليوم التالي مليئة بأخبار عن «لغز بريكستون»، كما أطلقوا عليه. قدَّم كل منها سردًا طويلًا للقضية، وقدمتها بعض الصحف كمقالة افتتاحية، وكانت بعضها تحتوي على معلومات جديدة عليَّ. وما زلت أحتفظ بالعديد من القصاصات والمقتطفات التي تتعلق بالقضية في الدفتر الخاص بي. وهنا تلخيص لعدد قليل منها:

أشارت صحيفة الديلي تلغراف إلى أنها قضية نادرة الغرابة في تاريخ الجريمة، فالاسم الألماني للضحية وغياب كل الدوافع الأخرى وتلك الكتابة المشؤومة على الجدار، كلها تشير إلى أن هذه الجريمة قد ارتُكبت بفعل لاجئين سياسيين أو ثوريين. فإن للاشتراكيين فروعًا كثيرة في أمريكا، ولا شك في أن القتيل قد انتهك بعض قوانينهم؛ فتعقبوه. وبعد التلميح لبعض المنظمات السرية، ونظريات كالنظرية الداروينية ومبادئ مالتوس عن السكان والإشارة لبعض الجرائم الشهيرة مثل جرائم القتل في طريق «راتكليف» السريع، اختتم المقال بتوجيه اللوم إلى الحكومة والدعوة إلى فرض المراقبة المكثفة على الأجانب في إنجلترا.

أما صحيفة ستاندرد، فعلقت على حقيقة أن الاعتداءات الخارجة عن القانون من هذا النوع عادة ما تحدث في ظل نظام الحكم الليبرالي، فهي نتيجة إثارة عقول الشعوب والضعف العام للسلطة. فالقتيل رجل أمريكي، وكان يقيم منذ عدة أسابيع في العاصمة لندن، في نزل تملكه مدام شاربنتير موجود في شارع توركاي تراس في كامبرويل، وكان يرافقه في رحلاته سكرتيره الخاص السيد جوزيف ستانجرسون، وقد ودع الاثنان صاحبة النزل يوم الثلاثاء الرابع من الشهر الجاري وغادرا إلى محطة يوستون، بنِية اللحاق بقطار ليفربول السريع، وقد شوهدا على رصيف المحطة. ثم انقطعت أخبارهما حتى عُثر على جثة السيد درير في منزل مهجور في شارع بريكستون على بعد عدة أميال من يوستن. فكيف جاء إلى هناك وكيف لقي مصرعه؟ وأين ذهب سكرتيره ستانجرسون؟ إنها أسئلة ما زال يكتنفها الغموض. ويسعدنا أن نعلم أن السيد ليستراد والسيد جريجسون من شرطة سكوتلاند يارد يحققان في القضية، ومن المتوقع أن ينجح هذان الشرطيان المعروفان في حل لغز القضية.

بينما علقت صحيفة ديلي نيوز قائلة إنه لا شك في أن لهذه الجريمة دوافع سياسية. فإن الاستبداد وكراهية الليبرالية اللذين يحركان الحكومات الأوروبية- كان لهما تأثير في اجتذاب عدد من المهاجرين الذين كان من الممكن أن يصبحوا مواطنين مثاليين لولا تأثرهم بكل ما مرُّوا به هناك. فقد كان بين هؤلاء المهاجرين ميثاق شرف شديد الصرامة، ويعاقب كل من ينتهكه بالموت. يجب بذل كل الجهود من أجل العثور على ستانجرسون، السكرتير الخاص بالقتيل، والتأكد من بعض التفاصيل حول عادات القتيل. وقد حققت التحقيقات خطوة كبيرة للأمام باكتشاف عنوان النزل الذي كان يقيم فيه القتيل،

والفضل في ذلك يعود إلى الجهود المبذولة من قبل السيد جريجسون محقق الشرطة في منطقة سكوتلاند يارد.

قرأتُ أنا وشيرلوك هولمز هذه القصاصات معًا حينما كنا نتناول فطورنا، وأعتقد أنها وفرت لنا قدرًا كبيرًا من التسلية.

– لقد أخبرتك أنه مهما حدث سيتمكن ليستراد وجريجسون بالتأكيد من تسجيل نقاط لصالحهما.

– إن الأمر يتوقف على النتيجة النهائية.

– باركك الله يا صديقي، لكن النتيجة النهائية لا تهم على الإطلاق، فلو قُبض على الرجل فسيُنسَب كل الفضل إليهما، وإذا هرب الرجل سينالان شرف المحاولة والثناء على جهودهما، مهما فعلا سيجدان من يؤيدهما، فهناك مثل يقول: «إن الأحمق دائمًا ما يجد من هو أكثر منه حماقة لكي يُعجب به».

سمعت صوت وقع أقدام كثيرة في الخارج وعلى الدرج، مصحوبة بصيحات تدل على الاشمئزاز من قبل صاحبة المنزل، فصحت قائلًا:

– ما هذا بحق السماء!

قال رفيقي بقلق شديد:

– إنها فرقة شارع بيكر التابعة لشرطة المباحث.

وبينما كان يتحدث اندفع إلى الغرفة ستة من أكثر المشردين بؤسًا وقذارة.

صاح هولمز بنبرة حادة قائلًا:

– انتباه!

فوقف الأوغاد الستة الصغار في صف واحد وكأنهم تماثيل مشوهة.

قال هولمز:

– بعد اليوم سوف تقومون بإرسال ويجينز وحده ليبلغني نيابة عنكم، وسوف يكون على البقية الانتظار في الشارع، هل عثرتم عليها يا ويجينز؟

فأجاب أحد الفتيان:

– لا يا سيدي، لم نعثر عليها.

قال هولمز:

– لا بأس، كان أملي ضعيفًا في أن تعثروا عليها، على أي حال يجب أن تستمروا في البحث حتى تجدوها.

ثم أكمل وهو يعطي شلنًا لكل واحد منهم:

– ها هو أجركم، اذهبوا الآن، وعودوا إليَّ بأخبار أفضل في المرة القادمة.

لوح لهم بيديه فخرجوا يركضون على الدرج مثل الفئران، وما لبثنا أن سمعنا صوت صياحهم في الشارع، وعلق هولمز قائلًا:

– إن ما يستطيع أن يفعله واحد فقط من هؤلاء المتسولين يفوق عمل عشرة من رجال الشرطة، فإن مجرد رؤية زِيِّ الشرطيِّ الرسمي يلجم أفواه الرجال، أما هؤلاء الصغار فيذهبون إلى كل مكان ويسمعون كل شيء، وهم أذكياء وسريعو البديهة أيضًا، كل ما ينقصهم هو التنظيم.

فسألتُه قائلًا:

– أتستعين بهؤلاء في قضية بريكستون؟

– نعم، فهناك شيء ما أود التأكد منه، إنها مسألة وقت لا أكثر. يبدو أننا سوف نسمع أخبارًا جديدة، فها هو جريجسون يعبر الشارع في طريقه إلينا والغبطة مرسومة على وجهه ويبدو أنه ينوى الانتقام. ها هو أمام بابنا.

سمعنا صوت قرع عنيف للجرس، وخلال لحظات صعد السيد جريجسون الدرج بسرعة، ثم اندفع إلى غرفة جلوسنا، وقال وهو يضغط على يد هولمز غير المرحبة:

– هنئني يا زميلي العزيز! لقد كشفت غموض ذلك اللغز، وجعلتُه واضحًا وضوح الشمس.

بدا القلق يظهر على ملامح وجهه هولمز المعبِّرة، وسأله قائلًا:

– أتعني أن تحقيقك يجري على المسار الصحيح؟

– المسار الصحيح! عجبًا يا سيدي، لقد عثرنا على المجرم وقُبض عليه.

– وما اسمه؟

فرك جريجسون كفَّيه وصاح قائلًا بتباهٍ:

– آرثر شاربنتييه، إنه ملازم أول احتياطي في الأسطول الملكي.

تنفس شيرلوك هولمز الصعداء، واسترخى مبتسمًا ثم قال:

– تفضل بالجلوس وجرِّب هذا السيجار، فنحن متلهفان حقًّا لمعرفة كيف توصلت إليه، أتريد كأسًا من الويسكي؟

فأجاب المحقق:

– نعم لا مانع لدي في ذلك، فإن المجهودات الهائلة التي بذلتُها في اليومين الماضيين قد أرهقتني. ولا أعني بذلك المجهود الجسدي بقدر ما أعني المجهود العقلي، كما تعلم يا سيد هولمز، فمن المؤكد أنك تقدر ذلك، لأن كلًّا منا يعمل معتمدًا على عقله.

فقال هولمز برزانة:

– إنه لطف كبير منك، لكن دعنا نستمع كيف وصلت إلى هذه النتيجة السارّة؟

جلس المحقق على الكرسي وبدأ في تدخين سيجاره، ثم صفع فخذه فجأة وهو في قمة سروره وقال:

– إن المضحك فعلًا في الأمر هو ذلك الأحمق ليستراد الذي يظن نفسه شديد الذكاء. فقد ذهب للمسار الخطأ تمامًا، إنه يلاحق ستانجرسون السكرتير وهو بريء تمامًا من هذه الجريمة كبراءة الجنين في رحم أمه. وليس لدي شك في أنه قد ألقى القبض عليه بحلول هذا الوقت.

أثارت تلك الفكرة ضحك جريجسون فأخذ يضحك حتى كاد يختنق.

- وكيف حصلتَ على دليلك؟

- حسنًا، سأخبركما بكل شيء، ولكن يجب أن يبقى هذا الأمر سرًّا بيننا يا دكتور واتسون. إن أول الصعوبات التي واجهناها هي معرفة ماضي هذا الأمريكي، قد ينتظر بعض المحققين حتى يتلقوا الرد على إعلاناتهم، أو أن يُقدِّم أحد الأطراف ما لديه من معلومات، لكن هذه ليست طريقة توبياس جريجسون في العمل. أتذكر تلك القبعة التي وُجِدت بجانب القتيل؟

فقال هولمز:

- نعم، إنها من صناعة جون أندروود وأولاده، (129) طريق كامبرويل.

فتراجع حماس جريجسون وقال بخيبة أمل:

- لم يكن لدي أي فكرة أنك لاحظتَ ذلك، هل ذهبتَ إلى هناك؟

- لا.

فصاح جريجسون وقد ظهر الارتياح على صوته:

- ها! يجب ألا تهمل أي فرصة مهما بدت صغيرة.

فعلق هولمز واعظًا:

- عند أصحاب العقول العظيمة فلا شيء يمكن اعتباره صغيرًا أو تافهًا.

- حسنًا! لقد ذهبت إلى أندروود وسألته عما إذا كان قد باع قبعة بذلك الحجم وتلك الأوصاف، فبحث في سجلاته، فتبين له أنه باعها للسيد دريبر المقيم في نزل شاربنتييه، بشارع توركواي تراس، وهكذا توصلت لعنوانه.

فتمتم شيرلوك هولمز قائلًا:

- ذكي.. ذكي جدًّا!

فأكمل المحقق قائلًا:

- وذهبت بعد ذلك إلى مدام شاربنتييه، فوجدها شاحبة الوجه ومهمومة للغاية، وكانت ابنتها معها في الغرفة أيضًا، فتاة جميلة على نحو غير مألوف، وكانت جفونها حمراء وأخذت شفتاها ترتعشان أثناء حديثي معها، ولم يغب كل ذلك عن ملاحظتي، فبدأتُ أشكُّ في الأمر وشعرتُ بأن هناك شيئًا ما مريبًا، من المؤكد أنك تعرف هذا الشعور يا سيد شيرلوك هولمز، عندما تصل إلى الأثر الصحيح فتشعر بتلك الرعشة في عروقك. فسألتُها: هل سمعتِ عن الحادثة الغامضة لمقتل نزيلك السابق السيد إينوك ج. دريبر من كليفلاند؟

فأومأت الأم برأسها وبدا أنها لم تكن قادرة على النطق بكلمة واحدة، أما ابنتها فانهمرت في البكاء. فازداد إحساسي بأن هاتين المرأتين تعلمان شيئًا عن هذه القضية.

فسألتهما:

– كم كانت الساعة حين غادر السيد دريبر هذا النُزل لكي يلحق بالقطار؟

فأجابت الأم وهي تبتلع ريقها محاولةً أن تحافظ على هدوئها:

– كانت الساعة الثامنة، وقال سكرتيره إنه كان هنالك قطاران، قطار في التاسعة والربع، وقطار آخر في الحادية عشرة. وقال إنهما سيركبان الأول فيهما.

– هل كانت تلك آخر مرة رأيتماه فيها؟

تغيرت ملامح وجه السيدة على نحو مفزع فور سماعها لهذا السؤال، ومر بضع ثوانٍ قبل أن تتمكن من لفظ كلمة واحدة، إذ قالت:

– نعم.

قالتها بصوت مبحوح ونبرة غير طبيعية. وساد الصمت للحظة، ثم قالت الابنة بصوت هادئ وواضح:

– لا خير يأتي من وراء الكذب أبدًا يا أمي، لنكن صريحتين مع الرجل، لقد رأينا السيد دريبر ثانية.

انهارت السيدة شاربنتييه على مقعدها ورفعت يديها وصاحت قائلة:

– فليسامحك الله، لقد قتلتِ أخاكِ!

فأجابت الفتاة بحزم:

– كان آرثر سيفضل أن نقول الحقيقة.

قلتُ:

– من الأفضل أن تخبريني بكل شيء الآن فإن نصف الحقيقة أسوأ من الصمت، وعلاوة على ذلك فنحن نعرف الكثير عن الأمر.

صاحت الأم قائلة:

– أنتِ من ستتحملين عواقب ذلك يا آليس!

ثم التفتت إليَّ وقالت:

– سأخبرك بكل شيء يا سيدي، ولكن لا تظن أن قلقي على ابني ينبع من خوف أن يكون له يد في هذه الجريمة البشعة. إنه بريء تمامًا منها، وإنما خوفي من أن يكون في عينيك وأعين الآخرين متورطًا في هذه القضية، ولكن هذا مستحيل بالتأكيد؛ فإن أخلاقه النبيلة ومهنته وماضيه المشرف يمنعونه من التورط في شيء كهذا.

– إن أفضل ما يمكنكِ فعله هو أن توضحي لي الحقيقة، وإن كان ابنك بريئًا حقًّا؛ فلن يصيبه أحد بسوء.

فقالت لابنتها:

– ربما من الأفضل أن تتركينا وحدنا يا آليس.

وبعد أن انصرفت ابنتها تابعت حديثها قائلة:

– والآن يا سيدي، لم يكن لدي أي نية في إخبارك بكل هذا، لكن بما أن ابنتي الجبانة قد فضحت الأمر فليس أمامي بديل آخر، وبما أنني قد قررت أن أحكي ما حدث فسوف أحكيه كاملًا دون إغفال أي تفصيلة.

– إن هذا أكثر خياراتك حكمة.

– كان السيد دريبر يسكن معنا لثلاثة أسابيع تقريبًا، وكان معه سكرتيره السيد ستانجرسون، كانا يقومان برحلة عبر القارة الأوروبية، فقد لاحظت ملصقًا مكتوب عليه كوبنهاغن على جميع حقائب السفر الخاصة بهما، ما يعني أن هذه المدينة كانت آخر مكان توقفا فيه. وكان ستانجرسون رجلًا هادئًا ومتحفظًا، أما رئيسه، فيؤسفني أن أقول إنه كان على النقيض تمامًا، فقد كانت طباعه حادة ووحشية، ففي ليلة وصوله إلى هنا أفرط في تناول الشراب وقد ساءت حالته كثيرًا بسبب ذلك حتى إنه لم يعد إلى رشده إلا بعد ظهر اليوم التالي. وكان سلوكه مع الخادمات متحررًا على نحو يثير الاشمئزاز، والأسوأ من هذا كله أنه سرعان ما اتبع الأسلوب نفسَه مع ابنتي آليس، فقد تحدث معها أكثر من مرة بطريقة ما.. لحسن الحظ أنها لم تفهمها؛ لبراءتها. وقد حاول في إحدى المرات أن يحتضنها بين ذراعيه بالقوة، وهو انتهاك جعل سكرتيره يوبخه ويعيب على تصرفه الجبان.

سألتُها قائلًا:

– ولكن لم تحملت كل هذا؟ أعتقد أن بإمكانك التخلص من نزلائك وقتما تريدين!

فاحمر وجه السيدة شاربنتييه خجلًا من سؤالي وقالت:

– يا ليتني طردته منذ أول يوم، لكن إغراء المال كان قويًّا، فقد كان كل منهما يدفع لي جنيهًا في اليوم الواحد، أي أربعة عشر جنيهًا في الأسبوع، وهذا موسم كساد وأنا أرملة ولي ابن في البحرية كلفني من المال الكثير، فخفت أن أخسر النقود، غير أن تصرفه الأخير مع ابنتي فاق قدرتي على الاحتمال، فطلبت منه المغادرة، وهذا هو سبب رحيله.

– وبعد ذلك؟

– ارتاح قلبي عندما رأيته يرحل بعيدًا، فإن ابني في إجازة الآن، ولكني لم أخبره بأي شيء مما حدث لأنه عنيف الطبع وهو شديد التعلق بأخته، فبعدما أغلقتُ الباب خلفهما أحسستُ وكأن حملًا ثقيلًا قد انزاح عن كاهلي، ولكن واحسرتاه! فبعد أقلِّ من ساعة سمعنا رنين الجرس وعلمتُ أن السيد دريبر عاد من جديد. كان في حالة من الهياج والسُّكْر الشديد، لذا فقد اقتحم الغرفة حيث كنت جالسة مع ابنتي، وقال بعض الكلمات غير المترابطة التي فهمتُ منها أن القطار قد فاته، ثم التفت إلى آليس واقترح عليها أمام عيني أن تهرب معه وقال لها: «لقد بلغتِ سن الرشد والقانون لا يمنعك من ذلك، ولدي من المال ما يكفي ويفيض، لا تقلقي بشأن هذه العجوز هنا، تعالي معي الآن على الفور وسوف تعيشين كالأميرات».

خافت منه آليس المسكينة وحاولت الابتعاد عنه، لكنه أمسك بمعصميها وحاول سحبها نحو الباب. فصرخت، وفي تلك اللحظة دخل ابني آرثر إلى الغرفة، ولا أعلم ما الذي حدث بعد ذلك، فقد سمعتُ سلسلة من التهديد والوعيد وأصوات عراك مشوشة، وكنت مرعوبة لدرجة أنني لم أجرؤ على رفع رأسي،

ولما نظرتُ إلى أعلى، رأيتُ آرثر يقف عند باب الغرفة ضاحكًا وفي يده عصا، وسمعته يقول: «لا أعتقد أن هذا الرجل سوف يزعجنا مرة أخرى، وسوف ألحق به لأرى ماذا سيفعل بنفسه».

وبهذه الكلمات أخذ قبعته وانطلق خلفه في الشارع، وفي صباح اليوم التالي سمعنا بخبر مقتل السيد دريبر.

كان هذا كل ما جاء على لسان السيدة شاربنتييه مع الكثير من اللهاث والتنهدات، وفي بعض الأحيان كانت تتحدث بصوت منخفض جدًّا، حتى كدتُ لا أسمع الكلمات، ومع ذلك فقد قمت بتدوين كل ما قالته باختصار، حتى لا يكون هناك مجال للخطأ.

قال شيرلوك هولمز وهو يتثاءب:

– إنه أمر مثير للغاية، وماذا حدث بعد ذلك؟

فأكمل المحقق حديثه وقال:

– بعد كلام السيدة شاربنتييه رأيت أن القضية برمتها معلقة بنقطة واحدة، فنظرت إليها نظرة دائمًا ما كنت أجدها فعَّالة مع النساء، وسألتُها في أي ساعة عاد ابنها، فأجابتني قائلة:

– لا أعرف!

– لا تعرفين؟

– لا، فإن معه مفتاحًا، ويمكنه الدخول بنفسه.

– بعد أن ذهبتِ إلى النوم؟

– نعم.

– ومتى ذهبتِ إلى النوم؟

– نحو الحادية عشرة.

– إذن فقد غاب ابنك لساعتين على الأقل؟

– نعم.

– وربما أربع أو خمس ساعات؟

– نعم.

– وماذا كان يفعل خلال ذلك الوقت؟

فأجابت وقد شحب وجهها تمامًا:

– لا أدري.

أكمل المحقق حديثه قائلًا:

– وبالطبع لم يكن هناك شيء يمكنني فعله بعد ذلك، فتحريت عن مكان الملازم شاربنتييه وذهبت بصحبة ضابطين وألقينا القبض عليه.

ولما وضعتُ يدي على كتفه وطلبت منه أن يأتي معنا بهدوء أجاب بكل جرأة وقال:

- أفترض أنك تقبض عليَّ لكوني متورطًا في مقتل هذا الوغد المدعو دريبر.

ولم نكن قد قلنا له شيئًا عن هذا، ولذلك أعتقد أن إشارته إلى الحادث أمر مثير للشك.

فقال هولمز:

- جدًّا.

- كان لا يزال يحمل العصا الثقيلة التي قد قالت أمه إنه قد أخذها معه عندما خرج يتبع دريبر.

- وما رأيك في الأمر إذن؟

- حسنًا، حسب نظريتي أعتقد أنه ظل يتبع دريبر حتى وصلا شارع بريكستون، وهناك نشب عراك جديد بينهما وتلقى دريبر خلاله ضربة من العصا قد تكون في بطنه، فتسببت في موته دون أن تترك أثرًا. وقد كانت الأمطار غزيرة فلم يلحظهما أحد، فقام شاربنتييه بجر جثة ضحيته إلى المنزل المهجور، أما عن الشمعة، والدم، والكتابة على الجدار، والخاتم، فقد تكون كلها حيلًا من أجل تضليل الشرطة.

قال هولمز بصوت مشجع:

- أحسنت، إنك تتقدم حقًّا يا جريجسون، ومن الوارد أن تحقق نجاحًا في المستقبل.

فقال المحقق بفخر:

- إنني فخور لأنني استطعتُ تدبر أمر هذه القضية بدقة. وقد تطوع الشاب بالاعتراف بأنه بعد أن تتبع دريبر لبعض الوقت لاحظ دريبر الأمر، فاستقل عربة أجرة لكي يهرب منه، وفي طريقة إلى المنزل التقى بزميل قديم من زملائه الملاحين فسارا معًا لمسافة طويلة، وعندما سألتُه عن مكان إقامة زميله هذا، لم يستطع أن يقدم أي إجابة مقنعة. أعتقد أن القضية اتضحت الآن، ولكن ما يضحكني كثيرًا هو التفكير في ليستراد الذي سار في مسار خاطئ تمامًا في تحقيقه في القضية، وأخشى أنه لن يتوصل لأي نتيجة، ولكن عجبًا يا إلهي، ها هو ليستراد قد جاء بنفسه!

لقد كان ليستراد حقًّا من صعد الدرج أثناء حديثنا، وحين دخل إلى الغرفة لم تكن الثقة والأناقة اللذان كانا يميزان سلوكه ومبلسه بوجه عام- ظاهرتين عليه، فقد ظهرت على وجهه ملامح القلق والاضطراب، وكانت ملابسه مهمَلة وغير مرتبة، ومن الواضح أنه جاء بهدف التشاور مع شيرلوك هولمز، فقد بدا محرجًا عندما رأى زميله. وقف ليستراد في وسط الغرفة يتحسس قبعته في توتر ولا يعلم ما الذي يجب عليه فعله، ثم قال أخيرًا:

- هذه القضية غريبة على نحو استثنائي وغامضة بصورة محيرة.

فصاح جريجسون وهو يشعر بالانتصار:

- آه، أتجدها كذلك يا ليستراد؟ كنت أعلم أنك لن تصل إلى نتيجة، هل تمكنت من العثور على السيد جوزيف ستانجرسون السكرتير؟

فقال ليستراد بأسًى:

- لقد قُتل السيد ستانجرسون في فندق هاليداي في نحو الساعة السادسة من صباح اليوم.

الفصل السابع

بريق لمع وسط العتمة

كان الخبر الذي أطلعنا عليه ليستراد شديد الخطورة وغير متوقع على الإطلاق، اجتاحتنا حالة من الذهول إثر سماعه، وقفز جريجسون من كرسيه فوقعت كأسه وسُكب ما تبقى فيها من الويسكي. وأخذت أحدق بصمت إلى شيرلوك هولمز الذي زم شفتيه وعقد حاجبيه وتمتم قائلًا:

– وستانجرسون أيضًا! إن الحبكة تزداد تعقيدًا.

فقال ليستراد متذمّرًا:

– لقد كانت معقدة بما فيه الكفاية من قبل.

ثم جلس على أحد الكراسي وقال:

– يبدو وكأنني قد اقتحمتُ مجلسكم السري هذا دون سابق إنذار.

تلعثم جريجسون قائلًا:

– هل أنت... هل أنت متأكد من هذا الخبر؟

قال ليستراد:

– لقد جئت لتوي من غرفته، وكنتُ أول من اكتشف ما حدث.

فقال شيرلوك هولمز:

– حسنًا، لقد سمعنا وجهة نظر جريجسون في القضية، هل تمانع في إخبارنا بكل ما رأيتَ وكل ما فعلت؟

فأجاب ليستراد وهو يعتدل في مقعده:

– لا مانع لدي، وأعترف بصراحة أنني كنت أعتقد أن ستانجرسون تورط في مقتل دريبر، ولكن بعد هذا الخبر الأخير اتضح لي أنني كنت مخطئًا تمامًا. كانت تسيطر عليَّ فكرة واحدة وهي أن أعثر على السكرتير، وقد علمت أنهما شوهدا معًا في محطة يوستن في نحو الساعة الثامنة والنصف مساء في الثالث من الشهر الجاري، ثم في الثانية صباحًا عُثر على جثة دريبر في شارع بريكستون. كان السؤال الذي يشغلني هو ماذا فعل ستانجرسون من الساعة الثامنة والنصف حتى وقت وقوع الجريمة، وما الذي حدث له بعد ذلك. لذا أرسلت برقية إلى ليفربول، وذكرت فيها أوصاف الرجل طالبًا منهم مراقبة السفن المتجهة إلى أمريكا، ثم أخذت أفتش عنه في جميع الفنادق والنزل الموجودة في محيط يوستن. فقد كنت مقتنعًا أن دريبر ورفيقه قد افترقا، فمن المعتاد أن يقضي ستانجرسون ليلته في مكان قريب حتى يعود إلى المحطة مرة أخرى في الصباح.

قال هولمز:

– من المحتمل أنهما قد اتفقا مسبقًا على اللقاء في مكان ما.

– هذا ما ثبت حقًّا، فقد قضيت مساء أمس كله في البحث عنه دون جدوى، وبدأت مبكرًا صباح اليوم في البحث من جديد، في الساعة الثامنة وصلت إلى فندق هالياداي الموجود في شارع ليتل جورج، ولما سألتهم عما إذا كان السيد ستانجرسون يقيم عندهم أجابوا على الفور بالإيجاب.

قالوا لي: لا شك أنك السيد الذي كان ينتظر مجيئه منذ يومين.

فسألت: أين هو الآن؟

فقيل: إنه نائم في غرفته في الطابق العلوي وطلب منا أن نوقظه في الساعة التاسعة.

فقلت: سأصعد لأراه الآن.

كنت أظن أن ظهوري المفاجئ أمامه قد يوتر أعصابه ويجعله يعترف بكل شيء. وتطوع أحد العاملين بالفندق وأرشدني إلى باب الغرفة في الطابق الثاني، ولما وصلنا إلى الباب رأيت شيئًا أصابني بالغثيان، ومع أن خبرتي دامت لعشرين عامًا في مجال الجرائم، فقد رأيت شريطًا من الدم يتسرب من تحت باب وينساب في صورة متعرجة، حتى يتجمع ويُشكل بركة صغيرة على طول حافة الجانب الآخر من الممر. صرختُ عندما رأيت ذلك المنظر، فعاد عامل الفندق الذي أرشدني إلى الغرفة والذي كاد أن يغمى عليه حين رأى المنظر. كان الباب مؤصدًا من الداخل، ولكننا دفعناه بكتفَينا وفتحناه بالقوة، كانت نافذة الغرفة مفتوحة وبجانبها جثة رجل يرتدي ملابس النوم، وكانت أطرافه باردة ومتصلبة مما يُشير لمُضِيّ وقت على موته، وعندما قلبناه تعرف عليه عامل الفندق على الفور وقال إنه الرجل المقيم الذي يدعى جوزيف ستانجرسون، أما عن سبب الوفاة فكان طعنة عميقة في الجانب الأيسر، من المؤكد أنها قد اخترقت القلب. والآن يأتي أغرب ما في القضية، ماذا تظنون أننا وجدنا فوق جثة القتيل؟

ارتجفتُ خوفًا وشعرتُ بالرعب يقترب حتى من قبل أن يجيب شيرلوك هولمز قائلًا:

– وجدتم كلمة RACHE مكتوبة بحروف من الدم.

فقال ليستراد في ذهول:

– نعم بالضبط، هذا ما وجدناه!

عمَّ الصمت بيننا لبعض الوقت، فكرتُ في أن هناك شيئًا منهجيًّا، وغير مفهوم أبدًا بشأن أفعال هذا القاتل المجهول، وذلك الشيء يجعل جرائمه أكثر فظاعة. وشعرت بأعصابي التي كانت قوية بدرجة كافية في ميدان المعركة وأمام أهوال الحرب- تنهار حين أفكر في هذا اللغز المخيف.

أكمل ليستراد حديثه وقال:

– لقد شوهد القاتل، فقد رآه الصبي الذي يوزع الحليب وهو في طريقه إلى مصنع الألبان، وتحديدًا في الممر المؤدي إلى الإسطبلات في خلف الفندق، لاحظ الصبي أن السلم الذي كان دائمًا ما يراه ملقى على الأرض، أُسند إلى الحائط المقابل لإحدى نوافذ الطابق الثاني، والتي كانت مفتوحة على مصراعيها، وبعد أن اجتازه نظر للخلف؛ فرأى شخصًا ينزل السلم، كان ينزل بهدوء ولم يكن يحاول التخفي، لدرجة أن الصبي ظنه نجَّارًا أو أحد عمال الفندق، فلم يعيره اهتمامًا خاصًّا باستثناء تعجبه من أن يبدأ أحد

العمال في عمله مبكرًا جدًّا لهذه الدرجة. وذكر الصبي انطباعه عن هذا الرجل، من أنه طويل ووجهه مائل إلى الحمرة، ويرتدي معطفًا طويلًا بنيَّ اللون. ومن الواضح أن الرجل قد بقي في الغرفة لبعض الوقت بعد انتهائه من جريمته، فقد وجدنا الحوض ملطخًا بالدم حيث غسل يديه، بالإضافة إلى آثار الدم على الشراشف حيث تعمد مسْح سكينه بها.

نظرتُ إلى هولمز عندما سمعتُ أوصاف القاتل التي تتطابق تمامًا مع الأوصاف التي قالها، ومع ذلك لم أجد على وجهه أي علامات للنشوة أو الرضا.

سأل شيرلوك هولمز قائلًا:

– ألم تجد في الغرفة أي دليل يشير إلى القاتل؟

– لا شيء، وجدنا محفظة دريبر في جيب ستانجرسون، لكن يبدو أن ذلك كان أمرًا عاديًّا، لأنه من كان يتولى دفع النفقات، وكان في المحفظة ثمانون جنيهًا كاملة، ما يعني أن القاتل لم يكن دافعه السرقة بأي حال، ولم نجد في جيب القتيل أي أوراق أو مذكرات باستثناء برقية واحدة مرسلة منذ شهر تقريبًا من كليفلاند، مكتوب فيها «ج. ح. موجد في أوروبا»، ولم يكن هناك توقيع على هذه البرقية.

سأل شيرلوك هولمز:

– ولم يكن هناك شيء آخر؟

– لا شيء ذو أهمية، وجدنا رواية ملقاة على السرير على ما يبدو أنه كان يقرأها قبل أن ينام، ووجدنا غليونه على كرسي بجانبه، وكوبًا من الماء على الطاولة، وعلى عتبة النافذة كانت هناك علبة صغيرة تحتوي على حبتين من الدواء.

فقفز شيرلوك هولمز من مقعده بسرور بالغ وهلل قائلًا:

– هذه هي الحلقة الأخيرة في فهم هذه القضية، إن القضية مكتملة الآن.

حدَّق كلا المحققين إليه بدهشة، وأكمل رفيقي كلامه بثقة وقال:

– إنني أمسك الآن بين يدي كل الخيوط التي شكلت التشابك المعقد لهذا اللغز. ما زالت تنقصني بعض التفاصيل بالتأكيد، لكنني متأكد من كل الحقائق الرئيسة، أكاد أرى أمام عيني ما حدث بداية من افتراق دريبر وستانجرسون عند المحطة، وحتى اكتشاف جثة ستانجرسون في الفندق. وسأثبت لكم صحة كلامي، هل يمكنك أن تأتي لي بحبوب الدواء تلك يا ليستراد؟

فأجاب ليستراد وهو يخرج من جيبه علبة بيضاء صغيرة وقال:

– نعم، إنها معي، فقد أخذتهما مع المحفظة والبرقية بنية التحفظ عليهم في مكان آمن في مركز الشرطة. كانت صدفة بحتة أن أقرر أن آخذ علبة الدواء معي، لأنني في حقيقة الأمر لا أرى لها أي أهمية.

قال شيرلوك هولمز:

– أعطني إياها.

ثم التفت إليَّ وقال:

– هل تبدو لك هذه الحبوب مألوفة أيها الطبيب؟

لكنها بالتأكيد لم تكن مألوفة لي، فقد كانتا حبتين شبيهتين بلؤلؤتين صغيرتين، لونهما رمادي وتبدوان شبه شفافتين أمام الضوء. قلت:

– من خلال خفتهما وشفافيتهما أعتقد أنهما تذوبان في الماء.

فأجاب هولمز قائلًا:

– هكذا بالضبط، والآن أرجو ألا تمانع أن تنزل، وتحضر لنا ذلك الكلب الصغير المسكين الذي كان يعاني من مرضه منذ فترة طويلة، والذي طلبَت منك صاحبة المنزل بالأمس أن تحاول إيجاد طريقة تخلصه بها من آلامه.

فنزلتُ إلى الطابق السفلي وأحضرت الكلب إلى الأعلى بين ذراعيَّ، وضعته فوق وسادة على الأرض، وكان من الواضح عليه أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة.

قال شيرلوك هولمز وهو يمسك بسكينه الصغير:

– سأَقَسِّم الآن إحدى هاتين الحبتين إلى نصفين، نصف سوف نحتفظ به في العلبة لأغراض مستقبلية، أما النصف الآخر فسوف أضعه في هذه الكأس مع كمية قليلة من الماء. وكما ترون فإن صديقنا الطبيب على حق، وها هو يذوب في الماء بسرعة.

فقال ليستراد ساخرًا:

– قد يكون هذا مثيرًا جدًّا للاهتمام، لكنني لا أرى ما علاقته بموت السيد جوزيف ستانجرسون.

– الصبر يا صديقي، الصبر! ستكتشف في الوقت المناسب أن لهذا علاقة بكل شيء. والآن سأضيف عليه القليل من الحليب، لكي يصبح المزيج مستساغًا للكلب؛ كي يُقبل عليه ويلعقه عن طيب خاطر.

وبينما كان يتحدث قام بسكب محتويات الكأس في صحن صغير، وقدمه للكلب الذي سرعان ما لعقه بالكامل.

كان سلوك شيرلوك هولمز الجاد مقنعًا للغاية لدرجة أننا جلسنا جميعًا في صمت نراقب الكلب باهتمام ونترقب نتيجة مذهلة للتجربة، لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل، فقد ظل الكلب مستلقيًا على الوسادة يتنفس بصعوبة بالغة، وكان من الواضح أن المزيج لم يحدث تغيرًا في حالة الكلب لا للأفضل ولا للأسوأ.

مرت دقيقة تلو الأخرى وهولمز يراقب مرور الوقت في ساعته بلا نتيجة، وبدت ملامح الإحباط وخيبة الأمل تظهر على وجهه، فأخذ يعض على شفتَيه وينقر بأصابعه على الطاولة، وبدا عليه الضجر الشديد، فقد كان منفعلًا للغاية لدرجة أني أشفقتُ عليه، أما عن المحققين الآخرين فقد كانا يبتسمان ساخرين من الحالة التي وصل إليها هولمز.

وأخيرًا هبَّ هولمز من كرسيه وأخذ يذرع الغرفة وهو يصيح قائلًا:

– لا يمكن للأمر أن يكون مجرد صدفة، مستحيل أن يكون كذلك. لقد عُثر على نفس حبوب الدواء التي شككتُ في أمرها في قضية دريبر بجانب جثة ستانجرسون، لكنها عديمة المفعول، فهي لم تؤثر في

حالة الكلب، فما معنى هذا؟ من المؤكد أن سلسلة استنتاجاتي لم تكن كلها خاطئة، هذا مستحيل! ومع هذا فإن حالة الكلب لم تدهور بأي صورة من الصور. آه، وجدتُها! وجدتُها!» ومع صيحة من الفرحة العارمة هرع هولمز إلى العلبة وقَسَم الحبة الثانية إلى نصفين، ثم أذاب نصفها في قليل من الماء وأضاف إليه الحليب ثم قدم المزيج إلى الكلب، ولم يكد الكلب المسكين يلعقه حتى بدأت أطرافه ترتعش وتتشنج، إلى أن أصبح جثة هامدة كما لو كان قد أصيب بصاعقة.

تنفس شيرلوك هولمز الصُّعَداء ومسح قطرات العرق عن جبينه وقال:

– يجب أن أكون أكثر ثقة، فبعد هذا الموقف عليَّ أن أدرك أنه إذا كانت إحدى الحقائق تتعارض مع سلسلة طويلة من الاستنتاجات المنطقية، فلا بد أنها تحمل تفسيرًا آخر. لقد كانت إحدى الحبتين تحتوي على سم قاتل، أما الحبة الأخرى فلا تحمل أي ضرر. كان عليَّ أن أدرك هذا قبل أن أرى العلبة حتى.

بدت لي جملته الأخيرة مفزعة للغاية، حتى إني كدت أشك أنه في كامل وعيه. ومع ذلك فإن الكلب الميت يبرهن على صحة تخمينه، وبدأت أشعر أن الضباب أخذ يتلاشى تدريجيًّا عن عقلي، وأنني بدأتُ أدرك الحقيقة إدراكًا غامضًا ومبهمًا.

أكمل هولمز كلامه قائلًا:

– إن كل هذا يبدو غريبًا لكم، لأنكم فشلتم منذ بداية التحقيق في إدراك أهمية الدليل الوحيد الحقيقي الذي كان بين أيديكم. وإنه لمن حسن حظي أنني وضعت يدي عليه، ومن المؤكد أن كل ما حدث منذ ذلك الحين كان يؤكد صحة افتراضي ويشكل تسلسلًا منطقيًّا. ومن ثَمَّ فإن كل الأشياء التي أثارت حيرتكم وجعلت القضية أكثر غموضًا في نظركم كانت في الحقيقة تساعد على تنويري وتؤكد صحة استنتاجاتي. ومن الخطأ أن يُخلط بين غموض الجريمة وبين غرابتها، فعادة ما تكون الجرائم البسيطة هي الأكثر غموضًا، لأنها تخلو من أي ملامح جديدة أو مميزة تساعدنا على استخلاص الاستنتاجات منها. فإن اكتشاف حل اللغز وراء جريمة القتل هذه كان سيكون أكثر صعوبة بالتأكيد، لو عُثِر على جثة الضحية ملقاة في الطريق العام دون أي من تلك التفاصيل الغريبة والمثيرة التي جعلت منها جريمة استثنائية، فهذه التفاصيل الغريبة في الواقع ميزت القضية وجعلتها أكثر سهولة، مهما بدا في ظاهر الأمر أنها زادتها تعقيدًا.

نفد صبر السيد جريجسون من سماع تلك الخطبة، ولم يكن قادرًا على أن يتمالك أعصابه أكثر فقال:

– انظر يا سيد شيرلوك هولمز، إننا جميعًا على استعداد أن نقر بأنك رجل ذكي، وأن لديك أساليبك المنهجية الخاصة بك في العمل، ولكننا الآن نريد ما هو أكثر من مجرد الكلام النظري وإلقاء المواعظ، ما يهمنا الآن هو إلقاء القبض على المجرم، لقد عرضت وجهة نظري في القضية، ويبدو أنني كنت مخطئًا، وأن الشاب شاربنتييه ليس متورطًا في الجريمة الثانية. وقد سعى ليستراد وراء ستانجرسون الذي شك في أمره، ولكن من الواضح أنه كان مخطئًا أيضًا. أما أنت فترمي بتلميحات هنا وتلميحات هناك، ويبدو أنك تعرف أكثر مما نعرف من تفاصيل عن القضية، ولكن أعتقد أنه من حقنا الآن أن نسألك بوضوح عن مدى ما تعرفه عن هذه القضية؟ وهل تستطيع أن تصرح باسم القاتل؟

قال ليستراد:

– لا يسعني إلا أن أقول إن جريجسون على حق يا سيدي، فقد حاول كلانا وفشل، أما أنت فقد ذكرت أكثر من مرة أن لديك كل الأدلة التي تحتاجها، وبالتأكيد لن تستمر في كتمانها لوقت أطول.

فقلت معلقًا:

– أرى أن أي تأخير في القبض على القاتل قد يمنحه الوقت لاقتراف جرائم وحشية جديدة.

وهكذا وبعد أن ضغطنا جميعًا على هولمز بدا مترددًا بعض الشيء، وراح يمشي جيئة وذهابًا في الغرفة ورأسه محنيٌّ لأسفل، وحاجباه معقودان كعادته عندما يكون مستغرقًا في التفكير، ثم توقف فجأة ونظر إلينا وقال:

– لن يكون هناك المزيد من جرائم القتل، فلا ترهقوا أنفسكم بالتفكير في هذا. لقد سألتموني إذا كنت أعرف اسم القاتل، وأقول لكم أنني أعرفه، ولكن مجرد معرفة اسمه هو شيء بسيط مقارنة بالقدرة على الوصول إليه، وهذا ما أتوقع حدوثه قريبًا جدًّا، فإن لدي ترتيباتي الخاصة التي آمل أن تساعدنا على القيام بذلك، ولكنه أمر يحتاج إلى تنفيذ دقيق لأننا أمام رجل ماكر ومتهور، وهو مدعوم من شخص آخر على نفس القدر من المكر والوحشية وكنت قد حاولت أن أثبت لكم هذا من قبل. وما دام أن المجرم ليس لديه فكرة أن هناك من يملك دليلًا ضده فهنالك فرصة للقبض عليه، أما إذا كان لديه أدنى شك في أنه موضع شبهة فسوف يقوم بتغيير اسمه، ويختفي في لحظة بين أربعة ملايين شخص من سكان هذه المدينة الكبيرة. ولا أقصد إيذاء مشاعر أي منكم، ولكنني ملزمٌ بأن أقول إن هذين الرجلين أكثر ذكاء ومهارة من رجال الشرطة، ولهذا السبب لم أطلب مساعدتكما، وإذا فشلت في تلك المهمة فسوف أتحمل بالطبع مسؤولية ذلك الخطأ، وأنا على استعداد لهذا. أما في الوقت الحالي، فإنني أعدكما بأنني سأتواصل معكما حين أتأكد من أن تواصلي هذا لن يعرض خطتي إلى الفشل.

كان يبدو على جريجسون وليستراد أنهما في حالة أبعد ما تكون عن الرضا بهذا الوعد الذي قطعه هولمز، وبتلميحه عن ضعف كفاءة محققي الشرطة، فقد احمرَّ وجه جريجسون غضبًا حتى وصل الاحمرار لجذور شعره الكتَّاني، أما ليستراد فقد لمعت عيناه الصغيرتان بالفضول والامتعاض، لكن قبل أن ينطق أي منهما بشيء سمعنا أحدهم يطرق الباب، وإذا به ويجينز الصغير المتحدث باسم الأطفال المشردين في الشوارع يدخل إلى الغرفة. قال وهو يمسك بإحدى خصلات شعره:

– عفوًا يا سيدي، ولكن العربة تنتظرك في الأسفل يا سيدي.

فقال هولمز بلطف:

– حسنٌ فعلت أيها الصغير.

ثم أخرج هولمز من الدرج زوجًا من الأصفاد الحديدية وأمسك بها وقال:

– لماذا لا تستخدم شرطة سكوتلاند يارد هذا النوع الجديد، انظروا كيف يعمل الزنبرك الخاص بها، إنه رائع! ويغلق في لحظة.

فقال ليستراد:

– إن النوع القديم يعمل بصورة جيدة بما فيه الكفاية، ولا ينقصه إلا أن تضعه في يد القاتل.

فابتسم هولمز قائلًا:

– عظيم، عظيم، يمكن لسائق العربة أن يساعدني في حمل صناديقي، اطلب منه أن يصعد إلى هنا يا ويجينز.

كنتُ مندهشًا من رؤية رفيقي يتحدثُ وكأنه على وشك أن ينطلق في رحلة ما، حيث إنه لم يقل لي أي شيء عنها. أما هولمز فكان منشغلًا بربط حقيبة صغيرة حين دخل سائق العربة إلى الغرفة.

قال هولمز وهو راكع ومستغرق في محاولة ربط الحقيبة دون أن يدير وجهه:

– ساعدني في غلق هذه الحقيبة أيها السائق.

فجاء السائق وبدا متجهمًا بعض الشيء، ومد يد المساعدة. وفي تلك اللحظة سمعنا صوت نقرة حادة وصليل معدن، ومن ثمَّ هب شيرلوك هولمز واقفًا على قدميه مرة أخرى.

وصاح يقول وفي عينيه بريق الانتصار:

– أيها السادة، دعوني أقدم لكم السيد جيفرسون هوب، قاتل إينوك درايبر وجوزيف ستانجرسون.

حدث الأمر كله في لمح البصر لدرجة أنني لم أكد أستوعبه، أذكر تلك اللحظة جيدًا، أذكر ملامح نشوة الانتصار على وجه هولمز ورنة صوته، ووجه السائق ذا الملامح الوحشية وقد اجتاحه الذهول مما حدث، وأخذ يحدق إلى الأصفاد التي ظهرت فجأة على معصميه كما السحر. أما نحن فوقفنا متسمِّرين لبضع ثوانٍ وكأننا مجموعة من التماثيل، وفجأة أفلت المجرم نفسه من قبضة هولمز مطلقًا صيحة غضب، وحاول أن يلقي بنفسه من النافذة فتحطم الزجاج والإطار الخشبي للنافذة من أثر اندفاعه، ولكن قبل أن ينجح في الفرار من عبرها انقض عليه جريجسون وليستراد وهولمز مثل كلاب الصيد وأعادوه مرة أخرى إلى داخل الغرفة، فبدأ بينهم صراع هائل، فقد كان قويًّا وعنيفًا للغاية لدرجة أنه استطاع التخلص منا نحن الأربعة مرارًا وتكرارًا، وكان يبدو متشنجًا مثل رجل في نوبة صرع، وكان وجهه ويداه قد تأذوا بجروح رهيبة بسبب محاولته الهروب عبر زجاج النافذة، مع ذلك فإن فقدانه الدم لم يؤثر في قوة مقاومته، حتى نجح ليستراد أخيرًا في الإطباق على عنقه وكاد أن يخنقه، فأدرك أخيرًا أن لا جدوى من مقاومته، ولم نطمئن حتى قيدنا يديه وقدميه أيضًا، وبعد أن انتهينا من ذلك نهضنا على أقدامنا؛ نلتقط أنفاسنا.

ثم قال شيرلوك هولمز:

– إن عربته موجودة في الأسفل ويمكننا أن ننقله فيها إلى مركز شرطة سكوتلاند يارد.

ثم أكمل كلامه مبتسمًا وقال:

– والآن أيها السادة، لقد وصلنا إلى نهاية لغزنا الصغير، ويمكنكم أن تطرحوا عليَّ ما تشاؤون من أسئلة، ولن أرفض الإجابة على أي منها.

الجزء الثاني

أرض القديسين

الفصل الأول

في السهول العظمى

توجد في الجزء الأوسط من قارة أمريكا الشمالية صحراء قاحلة موحشة، وكانت هذه الصحراء لسنوات طويلة تشكل حاجزًا كبيرًا أمام التطور الحضاري، فهي منطقة يملؤها الخراب والسكون تمتد من جبال سييرا نيفادا إلى ولاية نبراسكا، ومن نهر يلوستون شمالًا إلى ولاية كولورادو جنوبًا. كما أن الطبيعة متباينة للغاية في هذه المنطقة المقيتة، فهي تضم جبالًا عالية تغطي قممها الثلوج، ووديانًا مظلمة وكئيبة، وأنهارًا تتدفق بسرعة عبر أودية عميقة ومتعرجة، وسهولًا شاسعة تكسوها الثلوج البيضاء في الشتاء، والرمال الرمادية المحملة بالأملاح القلوية في الصيف. ومع هذا التباين في طبيعة المنطقة، إلا أنها تحتفظ بخصائص مشتركة كالقحولة والقسوة والبؤس.

لا يوجد سكان يعيشون في هذه الأرض اليائسة، لكن قد تعبرها مجموعات من الهنود الحمر من حين إلى آخر، من أجل الوصول إلى أراضي الصيد الأخرى. وحتى أقوى الشجعان يخشون الذهاب إلى تلك السهول المهيبة ويكونون سعداء بالابتعاد عنها والعودة إلى المروج والبراري مرة أخرى، ولا يبقى سوى الذئاب المتوارية خلف الشجيرات، والصقور المحلقة في الهواء، والدببة الرمادية العملاقة التي تمشي بخطوات متثاقلة عبر الوديان المظلمة تلتقط القوت من بين الصخور، هؤلاء هم السكان الوحيدون لهذه المنطقة البرية الموحشة.

لا يوجد في العالم كله منظر أكثر وحشة ورهبة من المنظر الذي تراه من أعلى منحدر سييرا بلانكو الشمالي، حيث لن ترى على مرمى بصرك سوى مساحات شاسعة من الأراضي السهلية المنبسطة المغطاة برُقَع من التراب القلوي، ويتخللها مجموعات من الشجيرات الصغيرة المتشابكة، وعند حافة الأفق القصوى توجد سلسلة طويلة من القمم الجبلية الوعرة المغطاة بالثلوج.

لا أثر لحياة في هذا الجزء الكبير من البلاد، فلا وجود لطيور تحلق في سمائه الغابرة، ولا وجود لحركة على أرضه الرمادية الكئيبة، وفوق كل ذلك فإن الصمت يخيم على جميع أرجائه، لا شيء سوى الصمت؛ صمت تام ومقبض للقلب.

لقد قيل إنه لا شيء يمت للحياة بصلة في هذه السهول الواسعة، لكن هذا ليس صحيحًا تمامًا، فإذا نظرنا إلى الأسفل من أعلى منحدر سييرا بلانكو، يرى المرء طريقًا يقطع الصحراء ثم ينعطف ويختفي بعيدًا، لقد حفرت عجلات العربات هذا الطريق وداست عليه أقدام العديد من المغامرين، كما يوجد به أشياء بيضاء متناثرة هنا وهناك تتلألأ تحت أشعة الشمس وتبرز وسط الترسبات القلوية الباهتة، وعند فحصهم يجد المرء أنها عظام، بعضها كبير وخشن الملمس والبعض الآخر أصغر حجمًا وأكثر دقة، فالنوع الأول عظام ثيران، أما الثاني فعظام بشر، ولمسافة ألف وخمسمئة ميل يمكن للمرء أن يتتبع المسار المروع للقوافل، عن طريق تتبع بقايا العظام المتناثرة لأولئك الذين سقطوا على جانب الطريق.

في الرابع من مايو عام (1847)، وقف مسافر وحيد ينظر إلى ذلك المشهد بالتحديد، كان يبدو كما لو أنه جنيٌّ ظهر في المنطقة من العدم، وكان يصعب على من يراه أن يحدد إذا كان عمره أقرب إلى الأربعين أم الستين. كان وجهه نحيلًا ومرهَقًا، وعظام وجهه بارزة من تحت بشرته الداكنة، وشعره البني الطويل ولحيته يتخلَّلهما الشيب، وكانت عيناه غائرتين في رأسه وتلمعان ببريق غير عادي، في حين أن يده التي كانت تمسك ببندقيته لم تكن أحسن حالًا من جسده الهزيل الذي يشبه الهيكل العظمي. كان يقف متكئًا على سلاحه، في حين يدُلُّ طول قامته وضخامة هيكله على بنيةٍ جسدية نحيلة لكنها قوية، غير أن وجهه الهزيل وملابسه التي بدت مترهلة للغاية على أطرافه الواهنة، كشفَت السبب الذي جعله يبدو كأنه عجوز هرِم، فقد كان الرجل يموت من الجوع والعطش.

كان الرجل يكابد للصعود من أسفل الوادي لهذا المرتفع الصغير، على أمل أن يرى أي أثر للماء، لكن صعوده كان عبثًا، فلم يرَ إلا امتدادَ السهل المِلحيِّ الهائل أمام عينيه وسلسلة الجبال الوعرة البعيدة، بلا أي دليل من نباتٍ أو شجرٍ على وجود ماء، لم يكن هناك أي بصيص أمل في هذا المكان الواسع، نظر بعينيه المتسائلتين إلى الشمال والشرق والغرب نظرات جامحة؛ حتى أدرك أن لا فائدة من تجواله وأنه يوشك على الموت فوق هذا الجرف القاحل شديد الانحدار، فتمتم قائلًا حينما كان يجلس على صخرة متخذًا منها مقعدًا: ولماذا ليس هنا؟ فبعد عشرين عامًا من الآن لن يكون هناك فرق بين هذه الصخرة وسرير من الريش؛ فالموت واحد.

وقبل أن يجلس، كان قد ترك بندقيته عديمة الفائدة على الأرض ومعها صُرّة كبيرة ملفوفة بشال رمادي، والتي كان يحملها على كتفه الأيمن قبل جلوسه على الصخرة، وكانت تبدو ثقيلة إلى حدٍّ ما مقارنة بقوته؛ فقد وقعت منه على الأرض بشيء من العنف، وفي الحال صدَرَ من الصُرَّة صوت يئن، وظهر منها وجه صغير خائف له عينان بنيَّتان وقبضتان صغيرتان.

قالت بتأنيب وصوت طفولي:

– لقد آلمتني!

فأجاب الرجل بندم قائلًا:

– حقًا، لم أقصد ذلك!

وبينما يتكلم أخذ يفك الشال الرمادي لتخرج منه طفلة جميلة صغيرة، تبلغ من العمر نحو خمس سنوات، وكانت ملابسها المكونة من حذائها الأنيق ومعطفها الوردي الجميل ومئزرها الكتاني الصغير، توحي بمدى اهتمام أمها بها. كانت الطفلة شاحبة وضعيفة، لكن بدا على ذراعيها وساقيها المعافين أنها عانت في الرحلة أقل من رفيقها.

كانت الفتاة الصغيرة ما تزال تفرك مؤخرة رأسها الذي تغطيه خصلات شعرها الذهبي، فسألها الرجل بقلق:

– كيف حال رأسك الآن؟

قالت وهي تشير إلى موضع ألمها:

- قبِّله حتى يزول الألم، هذا ما كانت أمي تفعله، أين أمي؟

فقال:

- لقد رحلت، وأعتقد أنك سترينها قريبًا.

فقالت الفتاة الصغيرة:

- رحلت! كيف وهي لم تقل لي وداعًا! لقد كانت تقولها دائمًا عند ذهابها إلى بيت خالتي لتشرب الشاي، وهي الآن غائبة منذ ثلاثة أيام! إن الجو حار جدًّا؟ ألا يوجد ماء أو أي شيء لنأكله؟

- لا يوجد يا عزيزتي، عليك فقط أن تتحلي بالصبر لبعض الوقت، ثم ستكونين على ما يرام. ارفعي رأسك وانظري إليَّ هكذا، وستشعرين بتحسن، ليس من السهل التحدث عندما تكون شفتاك جافتين كالحجر، لكن أظنه من الأفضل أن أخبرك كيف يمكن للبوصلة أن تخطئ، دعيني أرى.. ماذا لديك هنا؟

فصاحت الفتاة الصغيرة بحماس وهي تمسك حجرين لامعين وقالت:

- معي أشياء جميلة، أشياء رائعة، عندما نعود إلى المنزل سوف أعطيها لأخي بوب.

قال الرجل بثقة:

- قريبًا سوف ترين أشياء أكثر جمالًا، انتظري قليلًا فقط. كنت سأخبرك، هل تذكرين عندما غادرنا النهر؟

- أجل.

- حسنًا، لقد اعتقدنا أننا سنجد نهرًا آخر بعد مسافة قصيرة، ولكن وقع خطأ ما إلى البوصلة أو الخريطة أو أي شيء، فلم نجد النهر، ونفد الماء.. لم يبقَ منه سوى قطرات صغيرة لكِ و...

فقاطعته الفتاة وهي تحدق في وجهه المتسخ وقالت:

- ولا يوجد ما يكفي من الماء لتغتسل؟!

- لا، لا لأغتسل ولا لأشرب. وهكذا رحل السيد بيندر أولًا، ثم بيت الهندي، ثم السيدة ماكجريجور، ثم جوني هونز، ثم والدتك يا عزيزتي.

صرخت الفتاة الصغيرة وخبأت وجهها في مئزرها وأخذت تبكي بمرارة وقالت:

- أتعني أن أمي ماتت؟!

- نعم لقد ماتوا جميعًا ما عدا أنا وأنتِ، كنت أحسب أننا قد نجد الماء في هذا الاتجاه، لذا حملتك على كتفي وذهبنا معًا، لكن لا يبدو أننا استطعنا أن نحسِّن الأمور، تبدو فرصتنا في النجاة ضئيلة الآن!

توقفت الطفلة عن النحيب، ثم رفعت وجهها المبلل بالدموع لتسأله:

- أتقصد أننا سنموت أيضًا؟

- أعتقد ذلك.

فقالت وهي تضحك مبتهجة:

– لماذا لم تقل ذلك من قبل؟ لقد أخفتني، يا للعجب، ما دمنا سنموت فسوف أكون مع أمي مرة أخرى!

– نعم يا عزيزتي هذا أكيد، سوف تكونين معها.

– وأنت أيضًا ستكون معنا، وسوف أخبرها كم كنت طيبًا معي، أراهن أنها تنتظرنا على باب الجنة حاملةً إبريقًا كبيرًا مملوءًا بالماء، والكثير من كعك الحنطة السوداء الساخن المحمص من كلا الجانبين، كم كنت أحبه أنا وبوب، متى سنلقاها؟

– لا أعلم، ولكن ليس بعد وقت طويل.

كانت عينا الرجل مثبتتين في الأفق ناحية الشمال، في القبة السماوية الزرقاء، حيث ظهرت ثلاث نقاط صغيرة يزداد حجمها مع كل لحظة، واقتربت بسرعة فاتضح أنها ثلاثة طيور بنية كبيرة أخذت تُحلِّق فوق رأسَي هذين المشردَين في الصحراء، ثم استقرت فوق الصخور المطلة عليهما. لقد كانت من نسور الصحراء التي ينذر ظهورُها بالموت.

صاحت الفتاة الصغيرة مبتهجة وهي تشير إلى أشكال النسور المشؤومة وتصفق بيديها، لكي تجعلها تطير وقالت:

– ديوك ودجاج.

ثم سألته وقالت:

– عجبًا، هل خلق الله هذه البلاد؟

تفاجأ الرجل من هذا السؤال غير المتوقع، لكنه أجابها بقوله:

– بالطبع.

فقالت الفتاة الصغيرة:

– لقد خلق الله ولاية إلينوي وخلق ولاية ميزوري، ويوجد بهما ماء وشجر، أما هنا فلا!

سألها الرجل:

– ما رأيك أن نصلي؟

فأجابته:

– ولكن الليل لم يحل بعد.

– لا يهم، لن يمانع الله في ذلك، فهو يقبل الصلوات في كل وقت. هيا رددي الدعوات التي اعتدتِ أن تقوليها كل ليلة في العربة عندما كنا في السهول.

فقالت الطفلة بعيون متسائلة:

– ولماذا لا تدعو أنت؟

لا أذكر الدعوات، فأنا لم أُصَلِّ منذ كنت بنصف طول هذه البندقية، ولكنني أعتقد بأن الأوان لم يفُت بعد، رددِيها أنتِ وأنا سأقف بجوارك وأردد وراءك.

قالت وهي تفرش الشال على الأرض:

- عليك أن تركع إذن، وأنا أيضًا، وعليك أن ترفع يديك هكذا، إنه شعور رائع.

كان مشهدًا غريبًا لم يرَه سوى نسور الصحراء، فقد ركع الاثنان جنبًا إلى جنب، الطفلة الثرثارة، والمغامر المنهك فوق الشال الصغير، رفعت الطفلة وجهها الممتلئ، ورفع الرجل وجهه الهزيل إلى السماء الصافية، يتوسلان إلى الله من أعماق قلبَيهما، واختلط الصوتان، أحدهما واضح ورقيق، والثاني أجش وعميق، واتَّحدا معًا يدعوان ويتوسلان إلى الله طلبًا للرحمة والمغفرة. وبعد انتهاء صلاتهما عادا إلى الجلوس على الصخور، حتى غفت الطفلة على صدر حاميها العريض. ظل يراقب نومها لبعض الوقت، لكن النوم غلبه، إذ لم يسمح لنفسه بالنوم أو الراحة لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، فأغمض جفنيه ببطء فوق عينيه المتعبتين، وأخذ رأسه ينخفض للأسفل فوق صدره حتى اختلط شعر لحيته الأشيب بالخصلات الذهبية من شعر رفيقته، وغاص كلاهما في نوم عميق.

لو بقي المغامر مستيقظًا لنصف ساعة أخرى، لكانت عيناه رأتا مشهدًا من أغرب ما يمكن، فقد ظهرت بعيدًا على حافة السهل القلوي سحابة صغيرة من الغبار، كانت صغيرة جدًّا في البداية، لكنها أخذت تنمو وترتفع أكثر وأكثر، حتى صار واضحًا أن سحابةً كهذه لا تكون إلا نتيجة حركة عددٍ كبيرٍ من المخلوقات المقبلة، لو حدث ذلك في مكان أكثر خصوبة لظن من يرى المشهد بأنه ناتج عن اقتراب قطيع كبير من الثيران التي ترعى في المروج، لكن ذلك مستحيل في مثل هذه البرية القاحلة.

ومع اقتراب دوامة الغبار تلك من البقعة النائية التي كان التائهان يستلقيان فيها، بدأت الأغطية القماشية لعربات نقل ورجال مسلحين في الظهور وسط الغبار، واتضح أنها قافلة كبيرة في رحلة مُتَّجهة نحو الغرب، ويا لها من قافلة! فعند وصول مقدمتها عند قاعدة الجبل لم يكن آخرها مرئيًّا في الأفق، وامتدَّ عبر السهل الشاسع حشد غير منتظم من العربات الصغيرة وعربات النقل، والرجال الذين يمتطون الخيل والرجال السائرين على أقدامهم، وكذلك عدد لا يحصى من النساء يترنَّحن تحت ثقل الأحمال، والأطفال الذين يمشون بجوار العربات ويختلسون النظر من تحت أغطيتها البيضاء، وصار واضحًا أن هذا الحشد لم يكن لمجموعةٍ معهودةٍ من المهاجرين، بل هم جماعة من البدو أجبرَتهم الظروف الصعبة على البحث عن مكان جديد للإقامة فيه. وكُسِر الصمت التام الذي كان يعم المكان بأصوات هذا الحشد الهائل من البشر، مع صرير العجلات وصهيل الخيل، إلا أن كل هذه الأصوات الصاخبة لم تكن كافية لإيقاظ الاثنين التائهين النائمين على الصخور في الأعلى.

وكان في مقدمة الحشد عشرات من الرجال، وجوههم صارمة ومتجهمة، يرتدون ملابس بسيطة داكنة اللون ومسلحون بالبنادق، وعند وصولهم إلى سفح المنحدر توقفوا وعقدوا جلسة للتشاور فيما بينهم.

قال أحدهم وهو رجل حليق الذقن وأشيب الشعر وله شفتان غليظتان:

- إن الآبار على يميننا يا إخواني.

وقال آخر:

- إلى يمين سيرا بلانكا، هكذا سنصل إلى ريو غراندي.

وصاح ثالث:

– لا تخافوا من قلة المياه، فالله القدير الذي يستطيع أن يخرج الماء من قلب الصخور ومن باطن الأرض لن يتخلى عن شعبه المختار.

فرددت المجموعة كلها قائلة:

– آمين! آمين!

وعندما كانوا على وشك استئناف رحلتهم، نظر أحد أصغر رجالهم وأحدَّهم بصرًا إلى الصخرة الوعرة البارزة من الجبل الذي يعلوهم، ورأى كتلة صغيرة وردية اللون ظهرَت واضحة أمام الصخور الرمادية، فأشار إليها وأطلق صيحة عالية، وعندما انتبهوا لها جميعًا تعالت أصوات كبح الخيول ونزع السلاح بينما تقدَّم عدد من الفرسان الجدد لتعزيز المقدمة، وترددت كلمة «الهنود الحمر» على كل لسان.

قال الرجل المسن الذي بدا كأنه قائدهم: لا وجود لأي هنود هنا، لقد تخطينا منطقة قبيلة الباوني[4] ولا توجد قبائل أخرى حتى نعبر الجبال العظيمة.

سأل أحد رجال الجماعة:

– هل أتقدم لأتحقق من هذا الأمر أيها الأخ ستانجرسون؟

فصاحت أصوات عشرات الأشخاص:

– وأنا أيضًا، وأنا أيضًا..

فقال زعيمهم:

– اتركوا خيولكم في الأسفل، وسوف ننتظركم هنا.

وفي لحظة تقدم الفرسان الشبان وقاموا بربط الخيول، وصعدوا المنحدر الوعر الذي يقودهم إلى ذلك الشيء الذي أثار فضول الجميع، صعدوا بسرعة وهدوء وثقة وبراعة المستكشفين المتمرسين، وكان بإمكان المراقبين في الأسفل رؤيتهم يتنقَّلون من صخرة لأخرى حتى وصلوا إلى القمة، وعند وصولهم أطلق الشاب الذي كان يقودهم صافرة إنذار مفاجئة، ورآه أتباعه يلوح بيديه كأنما تملَّكَت منه الدهشة، وحين وصلوا إليه فاجأهم المنظر الذي رأوه.

وعلى الهضبة الصغيرة التي تعلو التل القاحل كانت توجد صخرة واحدة عملاقة، وعلى هذه الصخرة كان يرقد رجل طويل القامة، له لحية طويلة وملامح قاسية، ويعاني من النحافة المفرطة، وبدا من وجهه الهادئ وتنفسه المنتظم أنه غارق في النوم، وكانت ترقد بجانبه طفلة صغيرة تحتضن رقبته بذراعيها البيضاوين الصغيرتين، وكان رأسها ذو الشعر الذهبي قد استكان على صدر سترته القطنية، وكانت شفتاها الورديتان قد انفرجتا قليلًا لتكشف عن أسنانها المنتظمة البيضاء كاللؤلؤ، وقد ظهرت على وجهها ابتسامة تزين ملامحها الطفولية، وكان منظر ساقيها الصغيرتين الممتلئتين وجواربها البيضاء وحذائها الأنيق ومشبكه اللامع، يتعارض تمامًا مع مظهر رفيقها الواهن النحيف. وهناك على

حافة الصخرة فوق هذا الثنائي الغريب من البشر، وقفت ثلاثة نسور مهيبة، ومع اقتراب الوافدين أطلقت صيحات إحباط صاخبة وراحت تُحلِّق بعيدًا.

أيقظت صيحات النسور الشنيعة النائمين، وأخذا يحدقان إلى من حولهما بارتباك وحيرة، وقف الرجل يترنح على قدميه، وأخذ ينظر أسفل منه إلى السهل، الذي كان مهجورًا تمامًا حين غلبه النوم، والذي صار الآن مغطًّى بهذا العدد الهائل من البشر والبهائم، فبدا على وجهه تعبيرات الشك والذهول، وراح يحدِّق إلى المشهد الذي أمامه ويمسح على عينيه بيده ذات العظام البارزة، وتمتم قائلًا: «أعتقد أن هذا ما يسمونه الهذيان!».

وقفت الطفلة صامتةً بجانبه، تُمسك بطرف معطفه وتنظر حولها بنظرات طفولية حائرة.

تمكن فريق الإنقاذ من إقناعهما بأن ما يريانه أمام أعينهما ليس وهمًا، أمسك أحدهم بالفتاة الصغيرة ورفعها على كتفه، فيما قام اثنان آخران بمساندة رفيقها الهزيل ومساعدته في الوصول إلى العربات أسفل الجبل.

قال الرجل التائه موضحًا:

– اسمي جون فيرير، وأنا وهذه الفتاة الصغيرة آخر من تبقى من مجموعة من واحد وعشرين شخصًا، ماتوا جميعًا من الجوع والعطش في الجنوب.

سأل أحدهم:

– أهذه طفلتك؟

فصاح بتحدٍّ وقال:

– أعتقد أنها أصبحت كذلك الآن، إنها ابنتي؛ لأنني قمت بإنقاذها ولن يأخذها أحد مني. من الآن فصاعدًا اسمها لوسي فيرير.

ثم نظر بفضول إلى منقذيه الأقوياء الذين لفحتهم الشمس، وقال:

– ومن أنتم يا ترى؟ يبدو أن هناك عددًا كبيرًا من الأقوياء أمثالكم.

فأجابه أحد الشبان:

– نحو عشرة آلاف، نحن شعب الله المضطهد والمختار من قبل الملاك موروني.

قال الرجل التائه:

– لم أسمع به من قبل، ولكن يبدو أنه قد اختار عددًا هائلًا منكم.

فقال الشاب الآخر بصرامة:

– لا تمزح فيما هو مقدس، نحن ممن يؤمنون بهذه الكتابات المقدسة المنقوشة بأحرف هيروغليفية على ألواح من الذهب، والتي تسلمها إلى القديس جوزيف سميث في باميرا[5]، لقد جئنا من مدينة ناوفو في ولاية إلينوي حيث أسسنا المعبد الخاص بنا، وجئنا إلى هنا نبحث عن ملجأ بعيدًا عن اضطهاد الناس وعنف الملحدين، حتى لو كان هذا الملجأ في قلب الصحراء.

فقال جون فيرير وقد بدا أن اسم ناوفو نشط ذاكرته:

– آه فهمت الآن، أنتم المورمون.

فقال جميع من حوله في صوت واحد:

– نحن المورمون[6].

– وإلى أين أنتم ذاهبون إذن؟

– لا نعرف. إن الله يوجهنا بقيادة مرشدنا، وسوف نأخذك إليه ليقرر ما سنفعله بك.

وعندما وصلوا إلى أسفل التل كانوا محاطين بحشود من الرحالة من نساء شاحبات الوجه تبدو عليهن الوداعة، وأطفال يضحكون بشدة ورجال يراقبونهم بقلق، وتعالت صيحات الدهشة والتعاطف من حولهم عندما لاحظوا مدى صغر سن الطفلة، ومدى ضعف الرجل وبؤس حالته، لكن مرافقيهم الذين قاموا بإنقاذهم لم يتوقفوا عن السير، بل استمروا وتبعهم حشد كبير من المورمونِ حتى وصلوا إلى عربة كانت لافتة للنظر، بسبب كبر حجمها وبهرجة وجمال مظهرها، كانت تجرها ستة أحصنة في حين كانت العربات الأخرى يجرها حصانان أو أربعة على الأكثر. كان يجلس بجوار السائق رجل بدا أنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره، ولكن رأسه الضخم وملامحه الحازمة كانت تدل على أنه القائد. لقد كان يقرأ كتابًا غلافه بني اللون، وعندما اقترب الحشد وضعه جانبًا واستمع باهتمام لما حدث، ومن ثم التفت إلى الاثنين فيرير والطفلة وقال بلهجة مهيبة:

– إذا أخذناكما معنا فيجب أن تؤمنا بعقيدتنا، فنحن لن نحتفظ بذئاب في وسط قطيعنا. إننا نفضل أن نترككما حتى تتحولا إلى عظام في هذه البرية على أن تكونا بقعة العفن الصغيرة التي تفسد الثمرة بأكملها مع مرور الوقت، فهل ستنضمان إلينا بهذه الشروط؟

فقال فيرير:

– نعم أعتقد أنني سأنضم إليكم تحت أي شروط.

ومع هذا الرد لم يستطع الرجال الأكبر سنًّا والأكثر وقارًا أن يكبحوا ابتساماتهم، وحده القائد من استطاع الاحتفاظ بتعبيرات وجهه الصارمة الباعثة على الرهبة، وقال:

– خذه أيها الأخ ستانجرسون، قدم له هو والطفلة طعامًا وشرابًا، وسوف تكون مهمتك تعليمه تعاليم مذهبنا المقدس، والآن لقد تأخرنا بما يكفي. هيا إلى الأمام.. إلى صهيون[7]!

فصاحت حشود المورمونِ من ورائه:

– هيا، هيا إلى صهيون!

وظلت الكلمات تتردد عبر القافلة الكبيرة واختلطت معها أصوات وقع السياط وصرير العجلات وبدأت العربات تتحرك، وسرعان ما انطلقت القافلة كلها في طريقها مرة أخرى.

اصطحب زعيمهم فيرير والطفلة إلى عربته حيث كانت وجبتهما في انتظارهما، وقال: ستبقيان هنا، وسوف تستعيد عافيتك في غضون أيام، وفي خلال ذلك الوقت عليك أن تتذكر جيدًا أنك من الآن فصاعدًا على ديننا، وأنك أصبحت مورمونيًّا للأبد، وأنك ستنفذ التعاليم التي قالها بريغهام يونغ نقلًا عن جوزيف سميث، إذ هو مَن تحدث بأمر من الله.

إحدى قبائل الهنود الحمر يعيشون في السهول العظمى في ولاية أوكلاهوما بالولايات المتحدة الأمريكية.

بالميرا هو الاسم اللاتيني لملكة تدمر وهي تعتبر من أهم الممالك التي قامت على الأراضي السورية من (260–273).

المورمون هي مجموعة دينية وثقافية متعلقة بالمورمونية، وهي ديانة بدأها جوزيف سميث خلال أواسط القرن التاسع عشر. الغالبية العظمى من المورمون أعضاء في كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة، بينما أقلية منهم أعضاء في كنائس مستقلة أخرى، يعتبر المورمون أنفسهم جزءًا من الديانة المسيحية.

يشير اسم صهيون هنا إلى المجتمع الطوباوي الذي كان يطمح المورمون إلى إقامته على جزء من الأراضي الأمريكية.

الفصل الثاني

زهرة يوتا

لقد عانى المورمون المهاجرون معاناة كبيرة قبل وصولهم إلى ملاذهم الأخير، من شواطئ المسيسيبي إلى المنحدرات الغربية لجبال روكي، كافحوا بثبات لا مثيل له في التاريخ تقريبًا، لقد كافحوا ضد البشر الهمجيين والحيوانات البرية المتوحشة، كافحوا على الرغم من معاناتهم الجوع والعطش والتعب والمرض، كانوا قادرين على التغلب على كل العوائق التي وضعتها الطبيعة في طريقهم بالمثابرة؛ المثابرة التي تميز شعب الأنجلوسكسون. ومع ذلك فإن طول الرحلة والأهوال المتراكمة عبرها نجحَت في أن تهز قلوب أشجع الرجال لديهم، فلم يكن هناك من لم يسقط على ركبتيه فرحًا وشكرًا لله عندما رأوا وادي يوتا الواسع يتلألأ تحت أشعة الشمس الذهبية، وأخبرهم قائدهم بأن هذه هي أرض الميعاد، وأنها ستكون لهم إلى الأبد.

وسرعان ما أثبت يونغ أنه مدير ماهر ورئيس حازم، فقد رُسمت الخرائط وأُعدت الخطط من أجل إقامة مدينة المستقبل. وقُسمت المزارع ووُزعت على المزارعين بما يتناسب مع مكانة كل منهم، وهُيِّئ كل تاجر للعمل في تجارته وكل حرفي للاشتغال بحرفته، وسرعان ما ظهرت في المدينة شوارع وميادين كما لو كانت بمفعول السحر، كذا هُيِّئت أرض المزارع وبدأت فيها أعمال الزراعة، وحين حلَّ الصيف كان محصول القمح الذهبي يغطي المزارع كلها، وازدهر كل شيء بسرعة في هذه المستوطنة الغريبة، وفوق كل هذا فإن المعبد الذي أقاموه في وسط المدينة صار أكثر طولًا ووسعًا، ومنذ بزوغ الفجر وحتى حمرة الشفق كان صوت ارتطام المطرقة، وقشط المنشار لا يغيب عن النُصب التذكاري، الذي نصبه المهاجرون للرجل الذي قادهم إلى الأمان وقام بحمايتهم من العديد من الأخطار.

أما عن جون فيرير والفتاة الصغيرة التي اتخذها كابنة له وجعلها تقاسمه كل ثروته، فقد رافقا المورمونَ حتى نهاية رحلتهم العظيمة، إذ أقامت لوسي فيرير الصغيرة إقامة مرفهة في عربة الزعيم ستانجرسون، وهو المأوى الذي تشاركته مع زوجات المورموني الثلاث وابنه، وهو صبي عنيد وجريء في الثانية عشرة من عمره، وقد خرجت من صدمة وفاة أمها بيسر لطبيعة مرونة الطفولة، وما لبثت أن أصبحت مدللة النساء الثلاث، وتصالحت مع هذه الحياة الجديدة في منزلها المتحرك والمغطى بالقماش. وفي خلال ذلك الوقت كان قد تعافى فيرير واسترد صحته، وأثبت أنه مرشد جيد وصياد لا يعرف الكلل، فسرعان ما اكتسب تقدير واحترام رفاقه الجدد، حتى إنهم قد اتفقوا بالإجماع عندما وصلوا إلى وجهتهم على إعطائه قطعة أرض كبيرة وخصبة مثل جميع المستوطنين، ما عدا يونغ نفسه، وستانجرسون، وكمبال، وجونستون، ودريبر، الذين هم الحكماء الأربعة الرئيسون.

بنى جون فيرير في مزرعته منزلًا خشبيًّا كبيرًا، وظلَّ يضيف إليه توسعات كثيرة على مر السنين حتى أصبح جوسقًا واسعًا، فقد كان فيرير رجلًا عمليًّا ودقيقًا في تعاملاته، وماهرًا في استخدام يديه، وقد

ساعدته بنيته القوية في العمل صباحًا ومساءً لتحسين وفلاحة أراضيه، وهكذا ازدهرت مزرعته ازدهارًا كبيرًا وفي خلال ثلاثة أعوام كان قد صار أفضل حالًا من جيرانه. بعد ستة أعوام أصبح ميسور الحال، وبعد تسعة صار ثريًّا، وبعد اثنتي عشرة سنة غدا من أنجح ستة رجال في المدينة بأكملها وواحدًا من أشهر سكانها على الإطلاق، فلم يكن هناك اسم معروف أكثر من اسم جون فيرير.

لم يكن سوى أمر واحد فقط ما أزعج أتباع دينه، حيث لم تفلح جهودهم في إقناعه بالزواج وتأسيس أسرة كبقية رفاقه، ولم يقدم أي أسباب لرفضه الدائم، واكتفى بالتشبث برفضه بحزم وعناد شديدين، فعرَّضه ذلك لأن يتهمه البعض بالفتور تجاه دينه المتبنى، وآخرون بالجشع تجاه الثروة وعدم الرغبة في إنفاق أمواله على ذويه، فيما تكلم آخرون عن علاقة غرامية قديمة وعن فتاة شقراء ماتت على ضفاف الأطلسي، وأيًّا ما كان السبب وراء رفضه فقد استمر فيرير عزبًا، لكنه كان يطيع جميع التعاليم الدينية لهذه المستوطنة الصغيرة في كل النواحي الأخرى، حتى إنه صار معروفًا بكونه رجلًا متدينًا ومستقيمًا.

كبرت لوسي فيرير في المنزل الخشبي، وساعدت أباها بالتبني في جميع مهامه، فيما حلَّ هواء الجبل العليل ورائحة أشجار الصنوبر المهدئة محلَّ الأم في رعاية الفتاة الصغيرة، وسنة تلو الأخرى، ازدادت الفتاة طولًا وقوةً، وأصبح خدَّاها أكثر توردًا وخطواتها أكثر مرونة، وكان كثيرون من عابري الطريق يتأملونها وهي تلعب في حقول القمح أو تمتطي حصان أبيها البري بسهولة ونعومة، كما لو أنها وُلِدت في الغرب، فتبعث في نفوسهم حنينًا إلى الماضي الجميل. وشيئًا فشيئًا تحول البرعم إلى زهرة جميلة، وفي العام الذي صار فيه أبوها بالتبنِّي أغنى مزارعي المدينة، كانت قد غدَت نموذجًا لأجمل الفتيات الأمريكيات في منحدر المحيط الهادئ بأكمله.

على أي حال، لم يكن الأب أول مَن اكتشف تحوُّلَ الطفلة لامرأة مكتملة، إنه لشيء نادر في مثل هذه الحالات، فمثل هذا التغير الغامض يحدث بصورة دقيقة جدًّا وتدريجية للغاية، فلا يمكن قياسه بالتواريخ، حتى إن الفتاة نفسها تكاد لا تلاحظه إلا حين يرتعش قلبها فرحًا بنبرة صوت أو لمسة يد، فتعلم حينها بمزيج من الخوف والزهو أن طبيعةً جديدةً قد استيقظت بداخلها. قليلات هن مَن لا يستطعن تذكر ذلك اليوم، وتلك الحادثة الصغيرة التي بشَّرت ببزوغ فجر حياة جديدة. وفي حالة لوسي فيرير، كان الموقف خطيرًا في حد ذاته، بصرف النظر عن تأثيره المستقبلي على مصيرها ومصير كثيرين آخرين معها.

كان صباح يوم دافئ من شهر يونيو، وكان قديسو الأيام الأخيرة (المورمون) مشغولين مثل النحل، الذي اختاروا خليته شعارًا لهم، فقد ارتفعت في الشوارع همهمات البشر العاملين في الحِرف والصناعات، وسارت قطعان من البغال المحملة بحمولات ثقيلة على الطرق العامة المغبرة، متجهة كلها صوب الغرب، بعد أن انتشرت حمَّى الذَّهب في كاليفورنيا، والطريق البري المؤدي إليها يمر عبر مدينة المورمون، كما كانت هناك أيضًا قطعان من الأغنام والثيران التي تأتي من المراعي البعيدة، وقوافل من المهاجرين المتعبين، رجال وخيول منهكون بنفس القَدْر من عناء الرحلة الطويلة، وبين كل هذه الحشود المتنوعة شقت لوسي فيرير طريقها بمهارة فارس بارع، وجرت بحصانها وقد احمرَّ وجهها من فرط الحركة وتطايَرَ شعرها الكستنائي الطويل خلفها، فقد كلفها أبوها بمهمة في المدينة؛ لذلك انطلقت

مسرعة كما كانت تفعل في كل مرة بحماسة وشجاعة الشباب، وهي تفكر فقط في مهمتها وكيف ينبغي لها إنجازها. وبينما كانت في طريقها، أخذ الرحالة والمغامرون يحدقون إليها النظر في ذهول، حتى الهنود غير العاطفيين الذين يسافرون مُرتدين الجلود المدبوغة، تخلُّوا عن رزانتهم المعتادة وأخذوا يتأمَّلون جمال الفتاة ذات الوجه الأبيض.

حين وصلت لوسي لضواحي المدينة، وجدت الطريق مسدودًا بقطيع كبير من الماشية يقوده ستة من الرعاة الهمجيين الوافدين من السهول، حاولَت أن تتخطى هذه العقبة بنفاد صبر، فدفعَت حصانها إلى ما بدا لها كثغرة يمكنها المرور منها، لكن بمجرد دخولها فيها انغلق الطريق من خلفها بقطيع الماشية، فوجدَت نفسها محاصرة بالكامل داخل سيل متحرك من الثيران ذات القرون الطويلة والنظرات الشرسة، لم تشعر لوسي بالفزع إزاء الموقف الذي وجدت نفسها فيه، فقد كانت معتادة على التعامل مع الماشية، بل إنها حثَّت جوادها على التقدم إلى الأمام، على أمل شق طريقها خروجًا من الموكب. لكن لسوء حظها اصطدمَت قرون أحد الثيران بخصر الحصان بطريقة عنيفة، ما أثار جنونه وجعله يتراجع ويقف على قائمتَيه الخلفيتَين ويصهل صهيلًا غاضبًا، ثم أخذ يقفز ويرتدُّ إلى الوراء بطريقة قد تُسقِط عن صهوته أي فارس غير متمرس.

كان الموقف محفوفًا بالخطر، فكل حركة متهورة عنيفة من الحصان الهائج كانت تدفع به نحو قرون عجول أخرى فتزيد من هياجه وثورته، فصار كل ما يشغل بال الفتاة أن تُبقي نفسها فوق السرج، فالانزلاق يعني ميتة شنيعة تحت حوافر ثيران ضخمة وهائجة، ولم تكن الفتاة معتادة على التعامل مع الطوارئ المفاجئة من هذا النوع، لذا بدأ رأسها يدور، وأخذَت قبضة يدها على اللجام ترتخي، وشعرت بسحابة الغبار الناتج عن حركة الحيوانات المتناطحة تخنقها، وكان من الممكن أن تفقد الأمل في النجاة، لولا أن سمعَت صوتًا لطيفًا لشخص يمسك بمرفقها، ويُطمئنها بأنه سوف يساعدها، وفي اللحظة نفسها امتدَّت يد سمراء قوية تمسك بالحصان الخائف من لجامه وتشق الطريق لخارج القطيع، وسرعان ما أوصلَتها إلى الضواحي.

قال منقذها باحترام:

– آمل أنك لم تتأذي يا آنسة.

فنظرت لوجهه أسمر اللون ذي الملامح الشرسة، وضحكت بدلال وقالت بسذاجة:

– أنا خائفة بشدة من كان يُظنُّ في بونشو بأنه يخاف لهذه الدرجة من مجموعة من الأبقار.

فقال الآخر بجدية:

– حمدًا لله أنكِ استطعتِ أن تبقي مكانك على ظهر الحصان.

كان شابًّا طويل القامة له مظهر قوي، ويمتطي حصانًا قويًّا كستنائي اللون، وكان يرتدي ملابس الصيادين الخشنة ويحمل على كتفيه بندقية طويلة.

قال لها الشاب:

– أعتقد أنك ابنة جون فيرير؛ فقد رأيتكِ وأنت تمتطين حصانكِ خارجةً من حدود منزله، حين تعودين اسأليه إن كان يذكر جيفرسون هوب من سانت لويس، إذا كان هو فيرير نفسه الذي أعرفه، فإنه كان صديقًا مقربًا جدًّا إلى والدي.

سألتْه برزانة قائلة:

– أليس من الأفضل أن تأتي وتسأله بنفسك؟

بدا الشاب مسرورًا باقتراحها، وتلألأَت عيناه الداكنتان بالبهجة، وقال:

– سأفعل ذلك، لكننا كنا في الجبال مدة شهرين ولسنا في حال تسمح لنا بزيارة أحد، إذ ربما ينزعج من مظهرنا.

فأجابته:

– يجب أن يشكرك على الكثير من الأشياء، مثلي تمامًا، فهو مولع بي، ولو أن تلك الأبقار دهستني لما استطاع تجاوز الأمر أبدًا.

فقال رفيقها:

– ولا أنا.

– أنت! حسنًا لا أظن أن الأمر كان سيعنيك كثيرًا، فأنتَ لست حتى صديقًا لنا.

ظهر العبوس على وجه الصياد الأسمر الشاب بعد ما قالته لوسي فيرير، ما جعلها تضحك بصوت عالٍ، وقالت: أنا لم أعنِ ذلك بالتأكيد، فقد أصبحت صديقًا الآن ويجب أن تأتي لزيارتنا، أما أنا فعليَّ أن أمضي قُدُمًا، وإلا فلن يضع أبي ثقته فيَّ بعد الآن في مهمة تخص عمله، إلى اللقاء!

أجابها وهو يرفع قبعته وينحني على يدها الصغيرة:

– إلى اللقاء.

فاستدارت بحصانها وضربته بسوطها ضربة خفيفة، وانطلق على الطريق الواسع تتبعه سحابة من الغبار.

أخذ الشاب جيفرسون هوب السير مع رفاقه بكآبة وصمت. كان بصُحبتهم بين جبال نيفادا للبحث عن الفضة، وكانوا في طريق عودتهم لمدينة سولت ليك، على أمل زيادة رأس المال، كي يصبح كافيًا لاستخراج العروق المعدنية التي اكتشفوها، وكان جيفرسون متحمسًا للعمل مثلهم حتى وقعَت هذه الحادثة الأخيرة ودفعت بأفكاره في اتجاهٍ آخر غير الفضة، إذ شابهَت رؤية هذه الصبية الجميلة نسيمَ جبال سييرا النقي الناعم، الذي حرَّك مشاعره وجعل قلبه الجامح يتأجج في أعماقه، لقد أدرك حين غابَت عن بصره أن حياته تحولت تمامًا، وأن الفضة ما عادت تشغله ولا أي شيء آخر غير هذا الموضوع الجديد، الذي استحوذ على كل تفكيره. فلم يكن الحب الذي اشتعل في قلبه حبًّا صبيانيًّا خياليًّا وعابرًا، بل هو عاطفة حقيقية وقوية لرجل ذي إرادة قوية، اعتاد الوصول لكل ما يريده والنجاح في جميع ما يقوم به، وقد أقسم في قلبه أنه لن يفشل في هذا الأمر، وأنه سيعمل على إنجاحه بكل ما يستطيع من جهد ومثابرة.

قام بزيارة جون فيرير في نفس الليلة، وفي أيام عدة أخرى، حتى أصبح وجهه مألوفًا في منزل المزرعة، ولم يكن هناك لجون فيرير المحبوس في الوادي والمستغرق في عمله فرصةٌ تُذكر لمعرفة أخبار العالم في الخارج خلال الاثني عشر عامًا الأخيرة، لذا استطاع جيفرسون هوب أن يُخبره بكل هذه الأخبار بأسلوب أثار اهتمام لوسي ووالدها معًا، بصفته من رواد المستكشفين في كاليفورنيا، ويمكنه أن يروي العديد من القصص الغريبة عن الثروات التي جُمعت، وتلك التي فُقدت خلال هذه الأيام الصعبة الجامحة، وقد كان كشَّافًا أيضًا، وصيادًا ومنقبًا عن الفضة وصاحب مزرعة مواشي، فأينما وُجدت المغامرات المثيرة كان جيفرسون هوب هناك للبحث عنها.

وسرعان ما أصبح صديقًا مفضلًا للمزارع العجوز، الذي كثيرًا ما كان يتحدث عن فضائله، وأثناء ذلك كانت لوسي عادة ما تلتزم الصمت، لكن تورُّد خديها ولمعان عينيها كانا يعلنان بوضوح أن قلبها لم يعد ملكها، ربما لم يلحظ أبوها هذه العلامات، لكن من المؤكد أنها لن تفوت على الرجل الذي كسب حبها.

وفي إحدى الأمسيات الصيفية، جاء جيفرسون يعدو على الطريق فوق حصانه، وتوقف عند البوابة حيث كانت تنتظره أمام المدخل، فألقى باللجام فوق السياج وأسرع إليها، وأمسك يديها ونظر إلى وجهها بلطف وقال:

– أنا ذاهب يا لوسي، لن أطلب منك أن تأتي معي الآن، لكن هل ستكونين مستعدة لمرافقتي حين أعود ثانية؟

فضحكت بخجل وسألته:

– ومتى سيكون ذلك؟

بعد شهرين من السفر إلى الخارج سوف آتي وأسألك مرة أخرى، فلا أحد يمكنه الوقوف بيننا يا عزيزتي.

فسألته قائلة:

– وماذا عن أبي؟

لقد أعرب عن موافقته بشرط أن ندير عمل تلك المناجم جيدًا، وليس لدي شك في أننا سننجح في إدارتها.

فوضعَت خدها على صدره الواسع وهمسَت:

– حسنًا إذن، وهو كذلك، ما دام قد رتبت أنت وأبي كل شيء فليس هناك ما يقال بالتأكيد.

فقال بصوت أجش وهو ينحني ويقبل رأسها:

– حمدًا لله، لقد حسم الأمر إذن. عليَّ الذهاب الآن فكلما بقيت معكِ أكثر زادت صعوبة الذهاب، وهُم ينتظرونني عند الوادي. إلى اللقاء يا حبيبتي أراكِ بعد شهرين.

وأبعد نفسه عنها بينما يتكلم، وألقى بنفسه فوق جواده وانطلق يعدو وهو في غاية من الانفعال، ولم ينظر خلفه قط كأنه خائف من أن يتراجع عن القرار لو نظر إليها نظرة واحدة. فيما وقفت هي تنظر

إليه وهو يمضي في طريقه، حتى اختفى عن ناظرَيها، فدخلت إلى المنزل كأسعد فتاة في يوتا كلها.

الفصل الثالث

حديث جون فيرير مع الزعيم

مرت ثلاثة أسابيع منذ غادر هوب ورفاقه مدينة سولت ليك، وكان قلب جون فيرير يتألم حين يفكر في أن هوب سوف يعود، وأن ابنته المتبناة لن تكون بجانبه حينئذ. مع ذلك فإن وجهها المشرق السعيد جعله يرضى عن هذا الترتيب أكثر مما كانت ستفعل أي مناقشة أخرى، فقد عقد العزم في قرارة قلبه دائمًا ألا يجعل ابنته تتزوج من رجل مورموني أبدًا مهما كانت المغريات، فزواج مثل هذا كان لا يعتبره زواجًا على الإطلاق، بل كان في رأيه خزيًا وعارًا، ومهما كانت آراؤه عن معتقدات المورمون، فإن موقفه من هذه النقطة بالتحديد لا يتغير، لكنه اضطر إلى عدم التصريح بذلك بالتأكيد، فالتعبير عن رأي كهذا غير شائع كان سيُعتبر أمرًا خطيرًا في أرض القديسين في تلك الأيام.

نعم، إنه أمر خطير، بل إنه شديد الخطورة، لدرجة أن أكثر الناس ورعًا كانوا لا يجرؤون إلا على الهمس بآرائهم الدينية وهم قلقون؛ خشية أن يساء فهم ما يخرج من أفواههم فتقع عليهم العقوبة، فقد تحول ضحايا الاضطهاد أنفسهم الآن إلى مضطهِدين جدد، يمارسون الاضطهاد بأبشع الطرق، ولم تكن محاكم التفتيش الإسبانية ولا المحاكم الدينية الألمانية ولا الجمعيات السرية في إيطاليا، بقادرة على إطلاق آلية أكثر هولًا من تلك التي ألقت بظلالها القاتمة على ولاية يوتا.

إذ سيطرت على يوتا منظمة خفية وغامضة، وهذا ما جعلها مروعة بصورة مضاعفة، لذا كانت تبدو كأنما تعرف كل صغيرة وكبيرة، وتتحكم في كل شيء، مع ذلك فهي مجهولة تمامًا، فالرجل الذي عارض الكنيسة اختفى نهائيًا ولم يعرف أحد أين ذهب أو ما الذي حل به، كانت زوجته وأولاده ينتظرونه في المنزل، لكنه لم يعد ليخبرهم ما حدث له على أيدي قضاته السريين، فأي كلمة غير مدروسة أو أي فعل متهور كان يعرض صاحبه إلى الموت، ولم يستطع أحد أن يعرف ما هي طبيعة هذه القوة المخيفة التي كانت تحكم المنطقة، فلا عجب أن الناس كانوا يمشون خائفين ومرتعدين، وأنهم لم يجرؤوا على مهامسة بعضهم بعضًا بشكوكهم، حتى وهم في قلب الصحراء.

في البداية كانت هذه القوة الغامضة تستخدم فقط ضد المتمردين، الذين اعتنقوا العقيدة المورمونية ومن ثم حاولوا الإساءة إليها أو التخلي عنها، لكن ما لبث أن استخدمت على نطاق أوسع. أخذت أعداد النساء العازبات تتناقص بسبب نظام تعدد الزوجات، وبدأت شائعات غريبة تنتشر عن مقتل مهاجرين، وعن غارات مدمرة في مناطق لا يدخلها الهنود. كما ظهرت نساء جديدات في حريم الحكماء، وكانت تلك النساء دائمًا ما يبكين ويظهرْنَ ذابلات واهنات، وكانت تبدو على وجوههن علامات رعب لا ينطفئ. كما تحدث التائهون في الجبال عن وجود عصابات من الرجال المسلحين الملثمين متخفيين في الصحراء ويتحركون في الليل سرًّا بهدوء تام. وشيئًا فشيئًا بدأت هذه الحكايات والشائعات تصبح أكثر تحديدًا بذكر أسماء أناس معينين، وأخذت تتداول بين الناس أكثر حتى صارت ترتبط باسم محدد،

وإلى يومنا هذا فإن اسم عصابة دانيت أو «الملائكة المنتقمون» هو اسم مشؤوم ويرمز للشر في مزارع الغرب المنعزلة.

وكلما توافرت معلومات أشمل عن تلك المنظمة التي تسببت في هذه الأفعال الشنيعة، اقتصرت نتائجها على زيادة الرعب في نفوس الرجال بدلًا من الحد منه، فلا أحد يعرف من ينتمي إلى هذه المنظمة التي لا ترحم، بل ظلت أسماء الذين شاركوا في أعمال الدم والعنف تحت اسم الدين في طي الكتمان، فقد يكون صديقك الذي تخبره بشكوكك تجاه العقيدة المورمونية هو أحد أولئك الذين سيأتون ليلًا بالنار والسيف، لكي ينالوا منك وينفذوا العقوبة الرهيبة. ولهذا السبب كان كل شخص يخاف حتى من أقرب الناس إليه ولا يصرح أبدًا بما يجول في خاطره.

في صباح يوم جميل، كان جون فيرير على وشك الانطلاق في طريقه إلى حقول القمح الخاصة به، عندما سمع صوت طقطقة المزلاج، فنظر من النافذة ورأى رجلًا قويًّا أشقر الشعر في منتصف العمر تقريبًا، يقترب من الممر المؤدي إلى المنزل، فتسارعت دقات قلبه خوفًا لأن هذا الرجل الذي رآه كان بريغهام يونغ بنفسه، الزعيم العظيم. امتلأ قلبه بالرعب، فهو يعرف جيدًا أن هذه الزيارة لا تنذر بأي خير، لكنه سارع نحو الباب لاستقبال زعيم المورمون، غير أن الزعيم استقبل تحية جون فيرير ببرود، ثم تبعه إلى غرفة الجلوس بوجه صارم.

قال الزعيم وهو يجلس وينظر لجون بحدة من بين رموشه الشقراء:

– أيها الأخ فيرير، لقد كان المورمون المؤمنون أصدقاء جيدين لك، فقد أنقذناك من قلب الصحراء عندما كنت تتضور جوعًا، وشاركناك طعامنا وأوصلناك بأمان إلى الوادي المختار، ثم أعطيناك حصة كبيرة من الأرض وسمحنا لك أن تصبح غنيًّا تحت حمايتنا. أليس كذلك؟

أجاب جون فيرير:

– هذا صحيح.

وفي مقابل كل ذلك كان لدينا شرط واحد، هو أن تعتنق ديننا وتلتزم بجميع تعاليمه، هذا ما قطعتَ على نفسك وعدًا بتنفيذه، لكن بحسب هذا التقرير فمن الواضح أنك أخلفت وعدك.

فسأله فيرير وهو يمد يديه مجادلًا:

– وكيف أخلفته؟ ألم أدفع للصندوق العام؟ ألم أحضر بانتظام في المعبد؟ أليس هذا صحيحًا؟

سأله يونغ وهو يلتف حوله قائلًا:

– وأين هن زوجاتك؟ لماذا لا تطلب منهن المجيء هنا حتى أرحب بهن؟

فأجاب فيرير:

– صحيح أنني لم أتزوج، لكن النساء قليلات هنا، وثمة الكثيرون ممن هم أفضل مني للزواج منهن، وأنا لست رجلًا وحيدًا، فلدي ابنتي وهي ترعى شؤوني وتلبي حاجاتي.

فقال زعيم المورمون:

– وهذا ما أتيت إليك بشأنه، فقد جئت أحدثك عن ابنتك التي صارت زهرة ولاية يوتا، وصارت تجذب أعين الكثيرين من ذوي المكانة العالية في المنطقة.

أخافه كلام الزعيم عن ابنته، وقد أكمل يونغ كلامه قائلًا:

– لقد سمعت عنها قصصًا كثيرة، ولكني فضلت ألا أصدقها، قصص تقول إنها مخطوبة لشخص من الأغيار، لكن من المؤكد أنها مجرد شائعات، فإن القاعدة الثالثة عشرة في قانون القديس جوزيف سميث تقول إن كل فتاة من المورمونيين المؤمنين يجب أن تتزوج رجلًا من المختارين.

لم ينطق جون فيرير بأي إجابة، واستمر في العبث بعصبية بسوط الحصان الذي كان بين يديه.

فتابع الزعيم كلامه قائلًا:

– ستكون هذه النقطة اختبارًا لإيمانك، هذا ما عُقد الاتفاق عليه في مجلس الأربعة المقدس، إنها فتاة شابة ولن نجعلها تتزوج من رجل عجوز، وكذلك لن نحرمها من حق الاختيار، فستانجرسون لديه ابن، وكذلك دريبر، وكلاهما سيرحب بابنتك في منزله، دعها تختار بينهما، فهما شابان غنيان ومؤمنان بصدق. فما قولك في ذلك؟

ظل فيرير صامتًا لبعض الوقت عاقدًا حاجبيه، ثم قال أخيرًا:

– يجب أن تمنحونا الوقت، فما زالت ابنتي صغيرة جدًّا ولم تصل لسن الزواج بعد.

فقال يونغ وهو يقوم من مقعده:

– أمامها شهر لكي تختار، وبنهاية ذلك الوقت لا بد أن أسمع جوابها.

وبينما كان يمر من الباب التفت بانفعال وقال بلهجة حادة وهو يحرك يديه مهددًا فيرير:

– من الأفضل لكما أن تموتا ويصير جسداكما عظامًا متحللة في وادي سييرا بلانكا، على أن تحاول وضع إرادتك الضعيفة أمام أوامر القديسين الأربعة، ثم خرج يمشي بخطوات ثقيلة على الممر الخارجي.

كان فيرير ما يزال جالسًا وقد أسند مرفقيه على ركبتيه وهو يفكر مليًّا كيف سيخبر ابنته بالموضوع، حين شعر بيد رقيقة على كتفه، فنظر ورآها تقف بجانبه، وبنظرة واحدة إلى وجهها الشاحب الخائف عرف أنها سمعت كل ما قيل.

أجابت ردًّا على نظرة عينيه:

– لم أستطع فعل شيء حيال ذلك، فقد رن صوته في كل أرجاء المنزل، آه يا أبي، ماذا سنفعل؟

فأجابها وهو يداعب شعرها بيده الكبيرة الخشنة قائلًا:

– لا تخافي، سنجد طريقة نعالج بها المسألة، أنت ما زلت تحبين ذلك الشاب، أليس كذلك؟

كانت إجابتها الوحيدة تنهيدة وضغطة على يده.

فقال الأب:

– نعم، بالتأكيد نعم، فلا أريد أن أسمع أن مشاعرك تجاهه قد خفتت، فهو شاب واعد وأيضًا مسيحي، وهو أفضل من هؤلاء القوم هنا وإن كانوا مداومين على الصلاة وترديدهم للمواعظ. هناك

حفلة سوف تقام غدًا في نيفادا، وسوف أرسل له رسالة أخبره بالمأزق الذي نحن فيه، ومن خلال معرفتي به أعتقد أنه سيحضر بسرعة البرق.

فارتسمت على وجه لوسي ابتسامة بينما تنهمر دموعها وقالت:

– سوف ينصحنا بالحل الأفضل عندما يأتي، لكنني قلقة عليك أنت يا أبي العزيز، فالمرء يسمع قصصًا مروعة عما يحدث لأولئك الذين يعارضون الزعيم، دائمًا ما يلقون مصيرًا شنيعًا.

فقال أبوها:

– لكننا لم نعارضه بعد، وعلينا أن نستعد لما سيقابلنا من عواصف عندما نفعل ذلك، أمامنا شهر بالتمام، وأعتقد أنه سيكون من الأفضل لنا أن نغادر يوتا قبل نهايته.

– نغادر يوتا!

– نعم إنه الحل الأسلم.

– ولكن ماذا عن المزرعة؟

– سنجمع قدر ما نستطيع من المال ونترك الباقي، ولكي أكون صريحًا يا لوسي فإن هذه ليست المرة الأولى التي أفكر فيها في مغادرة يوتا، فأنا لا أحب الخضوع لأي إنسان كما يخضع الناس هنا أمام زعيمهم المبجل، أما أنا فقد ولدت أمريكيًّا حرًّا ولست معتادًا على مثل هذا الخضوع، وأعتقد أن الوقت فات حتى أتعلم ذلك، فلو أنه جاء لتفتيش هذه المزرعة، فمن غير المستبعد أن أستقبله برصاصة في صدره.

فعارضته الفتاة قائلة:

– ولكنهم لن يتركونا نرحل.

– انتظري حتى يأتي جيفرسون وسوف نتدبر الأمر معًا، وحتى ذلك الحين لا تقلقي نفسك يا عزيزتي ولا ترهقي عينيك بالبكاء، لا داعي للخوف فلا يوجد خطر على الإطلاق.

قال جون فيرير هذه الكلمات مواسيًا ابنته بنبرة واثقة جدًّا، ولكنها استطاعت أن تلاحظ اهتمامه غير المعتاد بإحكام غلق الأبواب في هذه الليلة، وكيف نظف بعناية البندقية القديمة الصدئة التي كانت معلقة على الجدار داخل غرفة نومه وعمَّرها بالذخيرة.

الفصل الرابع

هروب من أجل الحياة

وفي صباح اليوم التالي ذهب جون فيرير إلى مدينة سولت ليك، والتقى بأحد معارفه الذي كان متجهًا إلى جبال نيفادا، وأوصاه أن يوصل رسالته إلى جيفرسون هوب، والتي كان قد كتب فيها عن الخطر الوشيك الذي يهدده هو وابنته وعن ضرورة عودته، وبعد أن فعل ذلك عاد إلى المنزل وهو يشعر أن عقله صار أهدأ قليلًا، وأن الهموم التي أثقلت قلبه صارت أخف.

وعندما وصل إلى مزرعته فوجئ بوجود حصانين مربوطين في أعمدة البوابة، وازدادت دهشته حين دخل ووجد شابين داخل غرفة جلوسه. كان لأحدهما وجه طويل شاحب وكان يجلس متقاعسًا على الكرسي الهزاز وقدماه مرفوعتان فوق المدفأة. بينما كان الآخر شابًّا له عنق قصير وبدين وملامح فظة، وكان يقف أمام النافذة ويضع يديه في جيبيه ويصفر لحنًا معروفًا. وعند دخول فيرير أومأ له الاثنان وبدأ الشخص الجالس على الكرسي الهزاز بالحديث قائلًا:

– أنت لا تعرفنا على الأرجح، هذا ابن دريبر وأنا جوزيف ستانجرسون الذي سافرت معك في الصحراء، عندما مدَّ الله لك يد العون وضمك إلى جماعتنا المخلصة.

ثم قال الآخر بصوت أخنف:

– قد يستغرق الأمر وقتًا، ولكن الشر سيلقى عقابه دون هوادة عاجلًا أم آجلًا.

انحنى جون فيرير يحييهما ببرود وقد خمن سبب الزيارة.

تابع ستانجرسون قائلًا: لقد جئنا إلى هنا – بناءً على نصيحة آبائنا – لطلب يد ابنتك لمن تجدانه منا مناسبًا لها، ونظرًا لأن لدي أربع زوجات فقط، بينما للأخ دريبر سبع زوجات، لذا يبدو لي أنني الأحق بها.

فصاح الآخر قائلًا:

– لا، لا يا أخ ستانجرسون، فالمهم في الأمر ليس عدد الزوجات، بل العدد الذي في مقدورنا الإنفاق عليه، وقد وهب أبي طواحينه لي؛ وبهذا فأنا أغنى منك.

قال الآخر بحرارة:

– ولكن إمكانياتي المستقبلية أفضل منك، فعندما يموت والداي سأرث ساحة الدباغة ومصنع الجلود الخاص بهما، ثم إنني أكبر منك سنًّا وأعلى منك مكانة في الكنيسة.

فقال الشاب دريبر وهو ينظر إلى انعكاس صورته في المرآة:

– لنترك لها القرار.

وبينما كان ذلك الحوار يدور بينهما وقف جون فيرير عند مدخل الغرفة يستشيط غضبًا، وبالكاد استطاع أن يتمالك نفسه وألا يضربهما بالسوط. قال أخيرًا وهو يتقدم نحوهما: اسمعاني جيدًا، يمكنكما القدوم عندما تستدعيكما ابنتي وإلى ذلك الحين لا أرغب في رؤية وجهيكما هنا مرة أخرى.

حدق إليه الشابان المورمونيان بدهشة، فمن وجهة نظرهما اعتقدا أن تنافسهما على طلب يد فتاة شرف كبير لها ولأبيها.

فصاح فيرير فيهما قائلًا:

– هنالك طريقتان للخروج من الغرفة: الباب والنافذة، فأيهما تفضلان؟

بدا وجهه الأسمر وحشيًا للغاية ويداه الهزيلتان تلوح لهما بتهديد، فهب الزائران واقفين وسارعا بالهرب، وتبعهما العجوز وهو يقول ساخرًا:

– أعلماني بقراركما حين تستقران على إحداهما.

صاح ستانجرسون وقد انفجر غضبًا:

– يجب أن تتحمل نتيجة فعلتك، فإنك تتحدى إرادة الزعيم ومجلس الكبار الأربعة، وسوف تظل تندم على ذلك لبقية حياتك.

وصاح الشاب دريبر قائلًا:

– سيوقع الله غضبه عليك.

فهمَّ فيرير يندفع إلى الطابق العلوي ليجلب بندقيته ويلحق بهما، لكن لوسي أمسكت بذراعه ومنعته، وقبل أن يستطيع الإفلات منها سمع صوت حصانيهما يبتعدان عن المنزل، فصاح وهو يمسح العرق عن جبهته:

– يا لهما من وغدين صغيرين! أفضِّل أن أراكِ في قبرك يا فتاتي على أن أراكِ زوجة لأحد منهما.

فقالت بشجاعة:

– وأنا كذلك يا أبي، لكن جيفرسون سيعود قريبًا.

نعم، لن يمر وقت طويل حتى يأتي، لكن كلما كان ذلك أسرع كان أفضل بالتأكيد، فنحن لا نعرف كيف تكون خطواتهم التالية.

لقد حان الوقت بالتأكيد ليأتي شخص ويقدم المساعدة والمشورة للمزارع العجوز العتيد وابنته المتبناة. فمنذ نشأة هذه المستوطنة في قلب الصحراء لم يسبق أن وقعت مثل هذه الحالة من العصيان والتمرد على سلطة الزعماء، وإذا كان يتم معاقبة مرتكبي الأخطاء الصغيرة بهذه الصورة الصارمة، فماذا سيحل بهذا المتمرد اللدود! كان فيرير يعلم أن مكانته وثروته لن تنفعاه، فكثيرون ممن كانوا أغنياء وبنفس شهرته من قبل اختُطفوا خفية، وانتُزعت ممتلكاتهم لحساب الكنيسة. لقد كان العجوز رجلًا شجاعًا، إلا أنه ظل يرتعد خوفًا كلما فكر في تلك الأهوال الغامضة التي تنتظره.

كان يواجه أي خطر معروف بثبات تام، لكن ترقب المجهول على هذا النحو يثير أعصابه. كان فيرير يخفي مخاوفه عن ابنته، ويحاول أن يتظاهر أمامها وكأنه يستخف بالأمر، مع ذلك فقد استطاعت أن

ترى بعين الحب والاهتمام أنه كان قلقًا جدًّا، وباله غير مرتاح. توقع فيرير أن تصله رسائل تأنيب أو احتجاج من يونغ على تصرفه، ولم يكن مخطئًا، مع أنها جاءت بطريقة غير متوقعة، فحين استيقظ في صباح اليوم التالي فاجأه وجود ورقة مربعة صغيرة مثبتة على غطاء سريره، فوق صدره مباشرة، مكتوب عليها بخط عريض:

«أمامك تسعة وعشرون يومًا لتصحيح ما فعلته، وبعد ذلك..».

كانت تلك النقاط أكثر إثارة للخوف من أي تهديد آخر، كما أن وصول هذا التحذير إلى غرفته حيره بشدة، لأن خدمه كانوا ينامون في مبنى خارجي منفصل عن المنزل، وكانت الأبواب والنوافذ محكمة الإغلاق.

طوى فيرير الورقة ولم يذكر عنها شيئًا لابنته، فيما ظل قلبه يرتعد خوفًا بسبب ما حدث، فمن الواضح أن الأيام التسعة والعشرين كانت ما تبقى من الشهر الذي منحه إياه يونغ. ترى ما مقدار هذه القوة الغامضة التي تتعقَّبه؟ لقد كان متاحًا لليد التي وضعت هذه الورقة أن تطعنه في قلبه دون أن يعرف من الذي قتله.

وكان ما حدث في صباح اليوم الذي يليه هو ما زاد من توتره، فقد كانا جالسين يتناولان الإفطار عندما أطلقت لوسي صيحة فزع وهي تشير إلى الأعلى، حيث كُتب الرقم (28) في منتصف السقف بخط سيئ باستخدام عصا محروقة على ما يبدو. كان الأمر غير مفهوم لها، ولم يحاول جون شرح أي شيء، وبقي طوال الليل مستيقظًا يراقب ما سيحدث وهو يحمل بندقيته، لكنه لم ير أو يسمع شيئًا، ومع ذلك وجد في الصباح الرقم (27) مرسومًا بخط كبير على الجهة الخارجية من بابه.

وهكذا مر يوم بعد يوم، ومع حلول كل صباح كان أعداؤه غير المرئيين يحافظون على العدِّ. وتنوعت مواضع ظهور هذه الأرقام المشؤومة، فأحيانًا تظهر على الجدران، وأحيانًا على الأرضيات، وفي أحيان أخرى كان يجدها مكتوبة على لافتات صغيرة معلقة على بوابة الحديقة أو على السور.

لم يتمكن جون فيرير قط من معرفة من الذي يكتب هذه الأرقام، وكان يتملكه الرعب الشديد حين يراها، وأضناه القلق وصار مضطربًا كفريسة يُقتنص صيدها، ولم يعد له سوى أمل واحد وهو وصول الصياد الشاب من نيفادا.

تغير الرقم من (20) إلى (15) ثم إلى (10)، ولم تكن ثمة أخبار عن وصول الشاب الغائب، واستمرت الأرقام تتناقص ولم تظهر أي إشارة لعودته. كان المزارع العجوز يهرع نحو البوابة كلما سمع صوت صليل حصان أحد الفرسان على الطريق، ظانًّا أن المساعدة قد وصلت أخيرًا لنجدته.

وحين رأى الرقم (5) يتحول إلى (4) ثم إلى (3)، شعر بإحباط شديد وفقد أي أمل في الهروب، وعرف أنه وحده بلا حول ولا قوة في مواجهة هذا المأزق الرهيب، ولا سيما أن معرفته محدودة بالجبال المحيطة بالمستوطنة، وكانت الطرق التي يتردد عليها الناس قد صارت تحت الرقابة والحراسة المشددتين، ولا يمكن لأي شخص المرور منها من دون إذن من المجلس. شعر العجوز بأنه لا مفر أمامه، ومع ذلك فقد كان الموت أهون عليه من أن يوافق على الشيء الذي اعتبره عارًا سيلحق بابنته.

وفي ذات مساء كان فيرير جالسًا يفكر بعمق في مأزقه ويبحث عن طريقة للخروج منه، لكن من دون جدوى، وفي الصباح التالي ظهر الرقم (2) على جدار منزله، وعرف أن الصباح التالي سيكون آخر يوم في المهلة، فملأت مخيلته الظنون والخيالات الغامضة والمخيفة، ماذا عن ابنته؟ وماذا سيكون مصيرها بعد رحيله؟ لا يبدو أن هناك مفرًّا من هذا التنظيم غير المرئي الذي يحيط به. انهار رأسه على الطاولة وأجهش في البكاء من مرارة شعوره بالعجز.

لكن ماذا يكون هذا الصوت؟ فقد سمع فيرير في وسط الصمت صوت خربشة خافت، لكن يمكن تمييزه بوضوح في هدوء الليل. كان مصدر الصوت من ناحية باب المنزل، لذا تسلل فيرير إلى الردهة وأنصت بانتباه، توقف الصوت لبضع لحظات، ثم عاد الصوت الخبيث الخفيض مرة ثانية، يبدو أن أحدهم ينقر الباب بلطف شديد، فهل هو قاتل منتصف الليل الذي جاء لتنفيذ أمر القتل الصادر عن المحكمة السرية؟ أم أنه من جاء ليكتب الرقم الذي يرمز لحلول اليوم الأخير من المهلة المحددة؟ شعر جون فيرير بأن الموت السريع سيكون أهون من هذا القلق الذي يوتر أعصابه ويجعل قلبه يرتعد خوفًا، فتقدم إلى الأمام وسحب المزلاج فانفتح الباب.

كان كل شيء هادئًا وساكنًا في الخارج، إنها ليلة بديعة، النجوم المتلألئة تزين السماء فوق رأسه، مدَّ نظره في الحديقة الأمامية الصغيرة المحاطة بالسور والبوابة، لكنه لم ير أي أحد سواء في الحديقة أو على الطريق، تنهد فيرير بارتياح ونظر يمينًا ويسارًا، ثم نظر إلى الأسفل فلمح رجلًا ممددًا على وجهه على الأرض.

فقدَ فيرير أعصابه من شدة الفزع حين رأى الرجل، حتى إنه استند إلى الحائط ووضع يده على عنقه محاولًا خنق رغبته في الصراخ، فأول ما خطر بباله أن هذا الذي رآه جسدُ رجلٍ قتيل أو جريح، لكنه فوجئ به يزحف على الأرض ويدخل إلى الردهة بسرعة وهدوء ثعبان! وبمجرد دخوله إلى المنزل هب واقفًا على قدميه وأغلق الباب وكشف وجهه للمزارع المذهول، وإذا به وجه جيفرسون هوب ذو الملامح القوية الحازمة.

شهق جون فيرير قائلًا:

– يا إلهي! لقد أخفتني، ما الذي جعلك تأتي بهذه الطريقة؟

قال الآخر بصوت أجش: أعطِني طعامًا، فلم يكن لدي وقت للأكل أو للراحة طوال ثمانٍ وأربعين ساعة. ثم اندفع يأكل من الخبز واللحم البارد الباقيين على الطاولة من عشاء مضيفه، وبعد أن التَهَم الطعام بنهم وأشبع جوعه، سأله قائلًا:

– كيف حال لوسي؟ هل تتحمل ما يحدث؟

أجاب والدها:

– نعم، فهي لا تعرف مقدار الخطر.

هذا جيد، إن المنزل مراقَب من جميع الجوانب، لهذا أتيت زحفًا، ربما يكونون مراقبين أذكياء، لكن ليس بالدرجة التي تسمح لهم بالإمساك بصائد قرود الواشو بالتأكيد.

أحس جون فيرير بشعور مختلف الآن بعد أن أدرك أنه صار لديه حليف مخلص، فصافح يد الشاب القوية وضغط عليها بود وقال:

– أنت رجل يُفتخَر به، فليس هناك كثيرون مستعدون للحضور إلى هنا ومشاركتنا المخاطر والمصاعب التي حلَّت بنا.

أجابه الصياد الشاب قائلًا:

– أصبت يا رفيقي، مع أنني أُكِنُّ لك احترامًا كبيرًا، ولكن إذا كنت وحدك في هذا المأزق كنت سأفكر مرتين قبل أن أضع رأسي في عش الدبابير هذا، إن لوسي هي سبب وجودي هنا وأنا مستعد لأن أضحي بحياتي لكيلا يصيبها مكروه.

– ماذا سنفعل الآن؟

– غدًا هو يومك الأخير، وإن لم تتحركا الليلة ستضيعان، معي بغل وحصانان وهما ينتظران في وادي إيغل رافين، كم لديك من المال؟

– ألفا دولار من العملات الذهبية وخمسة آلاف من الأوراق النقدية.

– هذا يفي بالغرض، ومعي مبلغ أكبر منه لأضيفه عليه، يجب أن ننطلق نحو مدينة كارسون عبر الجبال، من الأفضل أن توقظ لوسي، ولحسن الحظ أن الخدم لا ينامون داخل المنزل.

وبينما ذهب فيرير ليوقظ ابنته ويجهزها لرحلتهم القادمة، قام جيفرسون هوب بجمع كل ما يمكن أكله في صرة صغيرة وملأ جرة فخارية بالماء لأنه كان يعلم من واقع خبرته أن آبار الجبال قليلة ومتباعدة. وبالكاد كان قد أكمل ترتيباته قبل أن يعود المزارع العجوز ومعه ابنته وقد ارتديا ملابسهما واستعدا للبدء في الرحلة. كانت التحية بين الحبيبين دافئة، ولكن سريعة؛ لأن الدقائق كانت غالية وأمامهما الكثير مما يجب فعله.

قال جيفرسون هوب بصوت خفيض، ولكنه حازم مثل شخص يدرك الخطر الهائل المحيط به، لكنه يُقوّي قلبه ليقدر على مواجهته:

– إن المدخلين الأمامي والخلفي مراقبان، لكن يمكننا الهروب بحذر من خلال النافذة الجانبية والتسلل عبر الحقول، وما إن نصل إلى الطريق سنكون على بعد ميلين فقط من الوادي حيث تنتظرنا الخيول، ومع بزوغ الفجر يجب أن نكون في قد قطعنا نصف الطريق عبر الجبال.

سأل فيرير:

– ولكن ماذا لو أوقفونا؟

صفع هوب عقب مسدسه البارز من سترته وقال بابتسامة شريرة:

– إذا كان عددهم يفوقنا بكثير فسوف يلقى اثنان أو ثلاثة منهم على الأقل نفس مصيرنا.

بعد أن أُطفئت جميع الأنوار داخل المنزل، حدق فيرير من النافذة المظلمة إلى الحقول التي كانت ملكه، والتي كان على وشك مغادرتها إلى الأبد، إلا أن التفكير في شرف ابنته وسعادتها تغلب على أي ندم على ثروته الضائعة، بدا كل شيء في الخارج موحيًا بالسكينة والهدوء، من صوت حفيف الأشجار إلى

حقول القمح الواسعة الممتدة في هدوء الليل، حيث كان من الصعب تخيل شبح القتل يتوارى فيها، لكن وجه الصياد الشاب الشاحب، والعزم البادي عليه أكَّدا أنه رأى أثناء اقترابه من المنزل ما جعله يختار هذا الاتجاه.

حمل فيرير حقيبة الذهب والنقود وحمل جيفرسون هوب المؤن الضئيلة والماء، بينما كانت لوسي تحمل صرة صغيرة تحتوي على بعض من ممتلكاتها القيمة. فتحوا النافذة ببطء شديد وحذر، وانتظروا حتى مرت سحابة مظلمة زادت من حُلكة ظُلمة الليل، ثم عبروا إلى الحديقة الصغيرة واحدًا تلو الآخر، وبأنفاس متقطعة وأجسام محنية مشوا عبرها، حتى وصلوا إلى سياج من الشجيرات، فاحتموا به، وداروا حوله حتى وصلوا إلى الفجوة التي تفتح على حقول الذرة، وما إن وصلوا إلى هذه النقطة حتى أمسك الشاب برفيقيه وسحبهما إلى الظل حيث قبعوا جميعًا يرتجفون في صمت.

ولحسن الحظ أن تدريب هوب على العيش في الحياة البرية قد جعل سمعه في حدة سمع حيوان الوشق، فما كاد هو وصديقاه يختبئون حتى سمعوا صوت نعيق مشؤوم لبومة جبلية على بعد أمتار منهم، والتي استقبلت الرد عليها في الحال بنعيق آخر من مسافة قريبة، ثم ظهر في هذه اللحظة خيال غامض يخرج من الفجوة التي كانوا يقصدونها، وأطلق إشارة الصيحة المشؤومة مرة أخرى، حيث ظهر رجل آخر من وسط الظلام عند سماعها.

قال الأول، الذي بدا عليه أنه مَن له السلطة:

– غدًا في منتصف الليل، عند سماع صيحة طائر السُّبَد الليلي ثلاث مرات.

فرد الآخر قائلًا:

– حسنًا، هل أخبر الأخ دريبر؟

– أخبره بالأمر ودعه يخبر الآخرين. تسعة إلى سبعة!

ردد الآخر:

– سبعة إلى خمسة!

ثم ذهب كل منهما في اتجاه مختلف، ومن الواضح أن هذه الأرقام كانت رمزًا أو كلمة سر، وفي اللحظة التي خمدت فيها أصوات خطواتهم هبَّ جيفرسون واقفًا على قدميه، وساعد رفيقيه على العبور من الفجوة، ثم قادهما في الطريق عبر الحقول بأقصى سرعته، فيما يُساند الفتاة ويكاد يحملها لأن قوتها بدأت تخور وتخذلها، وكان يقول لاهثًا بين الحين والآخر:

– هيا، أسرعا، أسرعا، لقد عبرنا خط الحراسة، وكل شيء يعتمد على السرعة الآن، أسرعا!

وحالما وصلوا إلى الطريق السريع أحرزوا تقدمًا سريعًا، ولم يقابلوا أي شخص في طريقهم سوى مرة واحدة فقط، وتمكنوا حينها من التسلل إلى الحقل والاختباء به كي لا يراهم أحد، وقبل الوصول إلى المدينة سلك الصياد طريقًا فرعيًّا ضيقًا ووعرًا يؤدي إلى الجبال، وكانت هناك قمتان مدببتان داكنتان تلوحان فوقهم في الظلام، وكان الممر الجبلي الذي يفصل بينهما هو وادي إيغل حيث كانت الركائب تنتظرهم.

وبحدس لا يخطئ شق جيفرسون طريقه بين الصخور الضخمة ومشى على طول مجرًى مائي جاف حتى وصل إلى زاوية منعزلة تحجبها الصخور عن النظر، حيث كانت الحيوانات المخلصة مربوطة بالداخل. ركبت الفتاة على البغل، وركب فيرير العجوز على أحد الحصانين ومعه حقيبة المال، بينما قاد جيفرسون هوب الحصان الآخر عبر الطريق المنحدر شديد الخطورة.

لقد كان الطريق شاقًّا على أي شخص لم يعتَد مواجهة ظروف الطبيعة في أقسى صورها، فعلى أحد جانبيه كان هناك جرف مظلم خطير شديد الانحدار، يبلغ ارتفاعه نحو ألف قدم أو أكثر، وتمتد على طول سطحه الوعر أعمدة بازلتية طويلة بدت مثل ضلوع وحوش متحجرة، أما على الجانب الآخر فقد كانت هناك فوضى جامحة من الصخور والحطام جعلت التقدم مستحيلًا، وبين الاثنين امتد الطريق الوعر، الذي كان ضيقًا جدًّا في بعض أجزائه بحيث اضطروا إلى السير واحدًا خلف الآخر، بعض الأماكن به كانت وعرة جدًّا لدرجة أن الفرسان الماهرين وحدهم من يستطيعون اجتيازها، لكن مع كل هذه الأخطار والصعاب كانت قلوب الهاربين منشرحة؛ لأنهم كانوا يبتعدون مع كل خطوة عن الاستبداد البشع الذي قرروا الهروب منه، ثم سرعان ما اكتشفوا أنهم لا يزالون تحت سلطة القديسين، إذ كانوا قد وصلوا إلى أكثر أجزاء الطريق عزلة ووحشة، حين صرخت الفتاة صرخة مرعبة وهي تشير نحو الأعلى، حيث وقف حارس منزوٍ فوق صخرة تطل على الطريق، وظهر داكنًا وواضحًا تحت السماء حين رآهم بمجرد أن لمحوه، دوَّت عبر الوادي الساكن صيحته العسكرية وهو يقول:

– من هناك؟

فقال جيفرسون هوب وهو يضع يده على البندقية المعلقة في سرج الحصان:

– مسافرون إلى نيفادا.

فرأوا المراقب الوحيد يمسك ببندقيته ويحدق إليهم وكأنه غير راضٍ عن ردهم، ثم سألهم قائلًا:

– بإذن من؟

أجاب فيرير:

– المقدسون الأربعة.

فقد علم من واقع خبراته مع المورمون أن هذه هي أعلى سلطة يمكنه أن يشير إليها.

فصاح الحارس قائلًا:

– تسعة من سبعة.

فقال جيفرسون بعد أن تذكر فورًا كلمة السر التي سمعها في الحديقة:

– سبعة من خمسة.

فقال الصوت من الأعلى:

– يمكنكم المرور، فلتصحبكم رعاية الرب.

اتسع الطريق بعد مرورهم من موقع المراقب وتمكنت خيولهم من الجري سريعًا، وحين نظروا إلى الوراء كان بإمكانهم رؤية المراقب متكئًا على بندقيته، فاطمأنوا لكونهم عبروا نقطة حدود أراضي

الشعب المختار وصاروا أحرارًا.

الفصل الخامس

الملائكة المنتقمون

مروا طوال الليل عبر ممرات ضيقة وعرة ومسارات غير منتظمة مليئة بالصخور المنثورة في كل اتجاه، وضلوا طريقهم أكثر من مرة، ولكن معرفة هوب الوثيقة بالجبال كانت تمكنهم من استعادة مسارهم الصحيح مرة أخرى. وحين طلع النهار كان أمام أعينهم مشهد بديع ذو جمال بري جامح، فقد كانت قمم الجبال المغطاة بالثلوج تحيط بهم من كل اتجاه وتمتد إلى الأفق البعيد، وكانت الحافات الصخرية شديدة الانحدار على كلا الجانبين للطريق، حتى بدت أشجار الصنوبر وكأنها معلقة فوق رؤوسهم، وخُيِّل إليهم أن أي هبة ريح قد تجعلها تندفع نحوهم بعنف إلى الأسفل، ولم يكن خوفهم هذا مجرد وهم، فقد كان الوادي القاحل مليئًا بالأشجار والصخور التي سقطت على هيئة مماثلة، وقد شاهدوا أثناء مرورهم صخرة هائلة تسقط مدوية كالرعد، فهزَّ صوتها جنبات الوادي الساكن وروَّع الأحصنة المتعبة فأخذت تعدو بسرعة.

وبينما كانت الشمس ترتفع شيئًا فشيئًا من الجانب الشرقي، بدأت قمم الجبال تتلألأ واحدة تلو الأخرى كما لو كانت مصابيح العيد المتوهجة، حتى أصبحت جميعها متوهجة بلون ضارب للحمرة. بعث المشهد البديع البهجة في قلوب الهاربين الثلاثة وجدد طاقاتهم، فتوقفوا عند سيل جارف يتدفق بعنف من أحد الأودية؛ ليسقوا الخيول ريثما يتناولون إفطارًا سريعًا.

وكانت لوسي ووالدها يودان لو يحظيا باستراحة أطول، لكن جيفرسون هوب كان مصرًّا على رأيه وقال:

– لا بد أنهم يقتفون أثرنا الآن، فالأمر كله يعتمد على سرعتنا، وبمجرد أن نصل إلى كارسون آمنين يمكننا أن نستريح لبقية حياتنا.

عانوا اليوم كله بعد ذلك في السير عبر الممرات الضيقة بين الجبال، وبحلول المساء قدَّروا أنهم أصبحوا على مسافة أكثر من ثلاثين ميلًا من أعدائهم، وتحت جنح الليل اختاروا صخرة بارزة لينامو بجانبها، حيث قدمت لهم بعض الحماية من الرياح الباردة، فتجمعوا عندها من أجل الدفء وتمتعوا ببضع ساعات قليلة من النوم، ثم استيقظوا قبل بزوغ الفجر، واستكملوا طريقهم مرة أخرى.

لم يلمحوا أي أثر لمطارِد، فاعتقد جيفرسون هوب أنهم قد صاروا بعيدين عن متناول تلك المنظمة المروعة التي أصبحوا أعداء لها، ولكنه لم يكن يدرك إلى أي مدى يمكن أن تصل تلك القبضة الحديدية، وكم كانت قريبة من أن تقبض عليهم وتسحقهم.

في نحو منتصف اليوم الثاني من رحلتهم، كان قد بدأ مخزونهم الضئيل من المؤن ينفد، لكن هذا الأمر لم يقلق الصياد كثيرًا حيث كانت هناك طرائد بين الجبال يمكن اصطيادها، وقد تعود أن يعتمد على بندقيته، لكي يحصل على متطلبات الحياة، فاختار زاوية منعزلة وقام بتجميع بعض أغصان الأشجار

الجافة، ثم أشعل النار فيها؛ حتى يحصل رفيقاه على بعض الدفء، حيث كانوا على ارتفاع نحو خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر وكان الهواء قارص البرودة. وبعد أن ربط الخيول وودع لوسي وحمل بندقيته على كتفه انطلق يبحث عن أي طريدة قد تعترض طريقه. وعندما نظر إلى الوراء رأى الرجل العجوز والفتاة جاثمَين قرب النار المشتعلة، في حين كانت تقف الحيوانات الثلاثة خلفهم بلا حراك، ثم تلاشوا عن نظره بين الصخور.

مشى مسافة ميلين من وادٍ إلى آخر دون جدوى، ومع أنه وجد بعض العلامات على لحاء الأشجار وغيرها من المؤشرات، تدل على وجود العديد من الدببة في الجوار. وأخيرًا، وبعد ساعتين أو ثلاث من البحث غير المثمر، وبعد أن دفعه اليأس إلى التفكير في العودة، رفع عينيه ونظر إلى الأعلى فرأى منظرًا بعث السعادة في قلبه، فقد رأى على صخرة بارزة فوقه حيوانًا يشبه الخراف إلى حدٍ ما ولكنه مسلح بقرنين كبيرين، فعرف أنه ما يسمى بكبش الجبال الصخرية، وكان يتصرف وكأنه زعيم لقطيع، لكن الصياد لم يستطع رؤية القطيع، ولحسن الحظ أن هذا الكبش كان يسير في الاتجاه المعاكس ولم ير الصياد، فتمدد جيفرسون على بطنه وأسند بندقيته على إحدى الصخور بثبات ووجهها نحو الهدف بدقة قبل أن يسحب الزناد، فقفز الحيوان في الهواء وترنح للحظة على حافة الهاوية، ثم سقط في الوادي بالأسفل.

كان من الصعب أن يحمل الحيوان كله معه نتيجة وزنه، لذلك فقد أقنع الصياد نفسه بأن يقطع وركه وجزءًا من خاصرته، ثم حمل غنيمته على كتفه وسارع بالرجوع من حيث أتى إذ كان المساء يقترب، لكنه لم يكد يبدأ طريقه حتى أدرك صعوبة الموقف الذي يواجهه، فقد دفعه التلهف إلى الصيد إلى التجول بعيدًا عن الوديان التي يعرفها ولم يعُد من السهل تحديد المسار الذي سلكه، فالوادي الذي وجد نفسه فيه كان يتشعب إلى ممرات عدة متشابهة جدًّا، لدرجةٍ يستحيل معها التمييز بينها. مشى في أحد الممرات مسافة ميل أو أكثر، حتى وصل إلى مجرى مائي بين الجبال، وكان واثقًا من أنه لم يسبق له أن رأى هذا المكان، فاقتنع بأنه قد سلك الاتجاه الخاطئ، فعاد وجرب السير من ممر آخر أدى به لنفس النتيجة. كان الليل يخيم سريعًا، وكان المكان بالكاد مظلمًا قبل أن يجد نفسه أخيرًا في ممر يبدو مألوفًا له، وحتى في ذلك الوقت لم يكن من السهل الاستمرار في المحافظة على المسار الصحيح؛ لأن القمر لم يكن قد ارتفع بعد، كما أن المنحدرات العالية على كلا الجانبين قد زادت من حدة الظلام. كان يمشي مترنحًا ومحملًا بأثقاله وقد أرهقه التعب، لكن ما أبقى قلبه بعيدًا عن اليأس هو تفكيره في أن كل خطوة يخطوها تقربه من لوسي، وأنه يحمل معه ما يكفي لتأمين الطعام لهم لبقية الرحلة.

وصل أخيرًا إلى مدخل الممر الذي تركهم فيه، فحتى في الظلام كان قادرًا على تمييز المنحدرات المحيطة به، وفكر في أنهما ينتظرانه بقلق شديد بكل تأكيد، فقد غاب عنهم قرابة الخمس ساعات، ومن فرحة قلبه وضع يده حول فمه وأطلق صيحة عالية تردد صداها عبر الوادي الضيق كإشارة على وصوله، ثم سكت وانتظر سماع رد، لكنه لم يسمع شيئًا إلا صدى صوت صيحته التي جلجلت في الوديان الموحشة التي يعمها الصمت، وقد تردد صداها على أذنيه بعدد لا يحصى من المرات. صرخ مرة ثانية بصوت أعلى من الأول، ثم عاود الصراخ مرة أخرى، ولكنه لم يسمع أي همسة من صديقيه اللذين كان قد تركهما

منذ ساعات معدودة، فتملكه خوف غامض وهرع إلى الأمام بذعر حتى سقط منه الطعام الثمين نتيجة قلقه.

حينما عاد إلى الزاوية ورأى البقعة التي كانت النار مشتعلة فيها، وكانت لا تزال هناك كومة من الرماد المتوهج، لكن من الواضح أن أحدًا لم يهتم بتغذيتها منذ رحل عنهما، وكان نفس الصمت المميت لا يزال يخيم على المكان، فأسرع يفتش في المكان بعد أن أدرك أن مخاوفه قد تحولت إلى حقيقة، فلم يجد أي كائن حي بالقرب من بقايا النار، لا الحيوانات ولا الرجل ولا الفتاة! اختفوا جميعًا. وبدا من المؤكد أن مصيبة مفاجئة ومروعة قد حلَّت بهم في غيابه، مصيبة أصابتهم جميعًا ولم تترك لهم أثرًا بعدها.

صدم جيفرسون هوب مما رآه وأصابه الذهول والحيرة وشعر برأسه يدور، فلجأ لأن يستند على بندقيته لإنقاذ نفسه من السقوط، ولأنه كان رجلًا عمليًّا فقد استعاد رباطة جأشه بسرعة بعد تلك اللحظات من الضعف المؤقت. فانتزع من بقايا النار قطعة خشب لم تحترق بأكملها ونفخ فيها حتى اشتعلت، ثم أخذ يتفحص الزاوية الصغيرة على ضوئها. رأى على الأرض آثار حوافر خيول كثيرة، ما يدل على أن مجموعة كبيرة من الفرسان قد أدركوا العجوز وابنته، وبحسب اتجاه مسارهم يتضح أنهم عادوا بعد ذلك إلى مدينة سولت ليك، فهل أخذوا معهم رفيقيه؟ كاد جيفرسون هوب يقنع نفسه بأنهم فعلوا ذلك دون شك، غير أن عينيه وقعتا على شيء جعل كل عصب من أعصاب جسده يرتعش فرَقًا بداخله، فقد رأى في أحد جوانب الزاوية كومةً من التراب المحمر، فوق جزء خفيض من التربة لا بد وأنها لم تكن هناك من قبل. صار الصياد الشاب موقنًا بأن ما يراه ليس إلا قبرًا حُفِر حديثًا، ولما اقترب منه وجد عصا مغروسة فيه ومحشور في إحدى شقوقها ورقة كُتِب عليها جمل مختصرة ودقيقة:

«جون فيرير

من مدينة سولت ليك

مات في الرابع من أغسطس عام 1860»

لقد رحل العجوز العتيد الذي لم يتركه سوى لفترة قصيرة جدًا، وهذا هو قبره. نظر جيفرسون حوله وقد فقد أعصابه، ليرى إذا كان ثمة قبر ثان، لكن لم يجد هناك ما يشير إلى قبر آخر، إذن فقد أخذ هؤلاء المطارِدون المروِّعون لوسي معهم؛ لكي تلقى مصيرها المتفق عليه سابقًا، وذلك بأن تصبح واحدة من حريم أحد أبناء الحكماء. وعندما أدرك الشاب أن هذا هو مصيرها المحتوم، وأنه عاجز عن فعل أي شيء ليمنعه، تمنى لو أنه قد لقي نفس مصير العجوز الراقد في مثواه الأخير الهادئ والمريح.

ومع ذلك فإنه سرعان ما تخلص من هذا الخمول الذي نبع من شعوره باليأس، واستعاد همته، فحتى لو لم يتبق له شيء آخر، يمكنه على الأقل تكريس ما بقي من حياته للانتقام، فمع صبره ومثابرته التي لا تقهر كانت قوة الانتقام أيضًا من صفاته المميزة، والتي من الممكن أن يكون قد تعلمها من الهنود الذين عاش بينهم. وبينما كان يقف بجانب النار المقفرة، شعر بأن الشيء الوحيد الذي بإمكانه أن يخفف من حزنه هو أن ينتقم من أعدائه بيديه انتقامًا عظيمًا، فعقد العزم على أن يكرس إرادته القوية وجهوده التي لا تعرف الكلل لأجل تحقيق هذه الغاية وحدها، فعاد بوجه شاحب كئيب

يتتبع آثار خطواته إلى حيث أسقط الطعام، وبعد أن أذكى النار شوى ما يكفيه لبضعة أيام، وقام بوضع طعامه في صرة، ومع تعبه الشديد إلا أنه استعد للسير عائدًا عبر الجبال مقتفيًا أثر الملائكة للمنتقمين.

ولمدة خمسة أيام كانت قدماه المتقرحتان تكدح وتعاني في طريق العودة عبر الممرات الضيقة، التي كان قد اجتازها من قبل على ظهر الخيل، وفي الليل كان يلقي بنفسه بين الصخور ليختلس بضع ساعات من النوم، ثم يعاود استئناف طريقه مرة أخرى قبل الفجر. وفي اليوم السادس كان قد وصل إلى وادي إيغل وهو المكان الذي بدأوا منه رحلتهم المشؤومة، ومن ذلك المكان وقف يطل على موطن القديسين.

كان منهكًا للغاية فاستند على بندقيته وهز يده الهزيلة بعنف ليتوعد للمدينة الهادئة التي رآها أمامه ممتدة على المجال الواسع بالأسفل، وبينما ينظر إليها لاحظ وجود أعلام في بعض الشوارع الرئيسة، وبعض العلامات الأخرى التي تشير إلى وجود احتفال ما، وفيما كان يخمن ما الذي يعنيه هذا كله، سمع صوت وقع حوافر حصان فنظر ورأى رجلًا يمتطي حصانًا ويتقدم نحوه، وعندما اقترب عرفه جيفرسون، فهو رجل مورموني يدعى كاوبر قدم له الصياد الشاب بعض الخدمات فيما مضى، لذلك بادره بالكلام حين اقترب منه، آملًا في معرفة مصير لوسي فيرير. فقال:

- أنا جيفرسون هوب، هل تذكرني؟

فنظر له المورموني بذهول واضح، فبالتأكيد كان من الصعب التعرف على الصياد الشاب المعروف بحسن هندامه وهو في هيئة المتشرد الأشعث ذي الملابس الرثة، والوجه الشاحب، والعينين الشرستين الغاضبتين. وما إن تأكد من هويته حتى تحولت دهشة الرجل إلى حالة من الذعر والقلق. وصاح به قائلًا:

- أنت مجنون لكي تأتي إلى هنا برجليك، قد يكلفني الأمر حياتي إن رآني أحد أتحدث معك، فهناك أمر قضائي صدر ضدك من المقدسين الأربعة، لأنك ساعدت فيرير وابنته على الفرار.

فقال هوب بجدية:

- أنا لا أخافهم ولا أخشى الأمر القضائي، لا بد أنك تعرف شيئًا حيال هذا الأمر يا كاوبر، وأنا أناشدك بكل ما هو عزيز عليك أن تجيبني عن بعض الأسئلة، لقد كنا دومًا أصدقاء، بالله عليك لا ترفض أن تجيبني.

فسأل المورموني بقلق:

- ماذا تريد أن تعرف؟ كن سريعًا فللصخور آذان وللأشجار عيون.

- ماذا حدث للوسي فيرير؟

- لقد تزوجت أمس من الشاب دريبر... ماذا بك يا رجل؟ تماسك.. إنك تبدو شاحبًا كما الأموات.

شعر هوب بنفسه ينهار، فجلس على الحجر الذي كان يستند عليه وقال بصوت ضعيف واهن:

- لا تأبه بي، أتقول إنها تزوجت؟

– نعم، تزوجت بالأمس، وهذا هو سبب تعليق الأعلام. وكانت هناك بعض الجدالات بين ابن دريبر، وابن ستانجرسون حول من منهما أحق بأن يتزوجها. كانا كلاهما من ضمن المجموعة التي تبعتهم إلى الجبال، وقد أطلق ستانجرسون النار على أبيها، لذا بدا أن حجته هي الأقوى وأن ذلك سيمنحه الأحقية، لكن عندما تناقش المجلس في الأمر كان حزب دريبر هو الأقوى، لذا منحها الزعيم له. لكني أخشى أنها لن تبقى مع أي منهما لوقت طويل، فقد رأيت الموت في وجهها بالأمس، إنها أقرب لشبح من كونها امرأة... هل ستنطلق الآن إذن؟

كان جيفرسون قد نهض من مقعده وبدا وجهه متصلبًا وكأنه نُحِت من الرخام، عليه تعبيرات حادة وقاسية، بينما كانت عيناه تلمعان ببريق ينذر بالشر، وقال:

– نعم، أنا ذاهب.

– ولكن إلى أين؟

فأجابه:

– لا تشغل بالك، ثم حمل بندقيته على كتفه وانطلق يمشي عبر الممرات الضيقة، وبعيدًا في قلب الجبال إلى مأوى الوحوش البرية، فلم يعد هناك ما هو أشد شراسة وخطورة منه.

وقد تحقق ما تنبأ به المورموني بشأن لوسي، وسواء كان السبب هو موت أبيها بتلك الطريقة المروعة أو كان ذلك من تأثير الزواج البغيض الذي أرغمت عليه، لم تتمكن لوسي من تحمل الوضع ولم تستعد قواها مرة ثانية، فماتت بعد شهر واحد من زواجها، ولم يتأثر زوجها السكير الذي تزوجها في الأساس طمعًا في ممتلكات جون فيرير، لذا لم يُظهر حزنًا كبيرًا لفقدانها، أما زوجاته الأخريات فقد أقمن الحداد عليها وجلسن حولها في الليلة التي تسبق الدفن كما هي عادة المورمونيين، وكنَّ متجمعات حول النعش في الساعات الأولى من الصباح وبدا عليهن خوف وذهول لا يوصفان، عندما فُتح الباب بعنف ودخل إلى الغرفة رجل فظ رث الثياب، ببشرة لفحتها الشمس، ودون أن يلقي نظرة أو كلمة إلى النساء المرتعدات، سار تجاه الجثمان الشاحب الساكن الذي كانت تسكنه روح لوسي فيرير النقية، انحنى الرجل فوقها وقبل جبينها البارد بوقار، ثم أمسك بيدها وانتزع خاتم الزواج من إصبعها، وصاح بزمجرة عنيفة: «لن تدفن وهذا الخاتم في إصبعها».

وقبل أن يدق ناقوس الخطر كان قد قفز نزولًا على الدرج واختفى. كان ما حدث غريبًا جدًّا وسريعًا للغاية، حتى إن من شهدوه وجدوا صعوبة في تصديقه بأنفسهم أو إقناع الآخرين به، لولا الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، حقيقة أن خاتم الزواج الذهبي قد اختفى من إصبعها.

ظل جيفرسون هوب قابعًا بين الجبال لبضعة أشهر، يعيش حياة برية ووحشية ويغذي في قلبه الرغبة الشديدة في الانتقام التي تملكت زمامه. وانتشرت حكايات وأقاويل في المدينة حول شخص غريب شوهد وهو يحوم خلسة في الضواحي، وقيل إنه يسكن ممرات الجبال الضيقة المنعزلة، وقيل إنه ذات مرة اخترقت رصاصة زجاج نافذة ستانجرسون لكنها اصطدمت بالحائط على بعد مسافة قدم واحد منه، وفي مناسبة أخرى قيل إن دريبر نجا بأعجوبة من صخرة كبيرة كادت تسقط عليه بينما كان يسير أسفل جرف صخري، وأنه لم ينجُ من هذه الميتة الشنيعة إلا لكونه رمى بنفسه على وجهه بعيدًا. ولم

يمضِ وقت طويل حتى اكتشف الشابان المورمونيان السبب وراء هذه المحاولات لقتلهما، وقادا حملات متكررة داخل الجبال على أمل قتل عدوهم أو أسره، ولكنهم دائمًا ما كانوا يفشلون، بدآ يتخذان الحيطة بعدم السير وحدهما، وعدم الخروج ليلًا، وأن يقوما بوضع حراسة على منزليهما، وبعد مرور فترة دون أن يسمعا فيها أي أخبار تخص خصمهما تمكنا من تخفيف هذه الإجراءات على أمل أن يكون الوقت قد هدَّأ من رغبته في الانتقام.

لكن ما حدث بالفعل لهوب كان بعيدًا تمامًا عن ذلك، فقد زاد الوقت من رغبته في الانتقام. كان للصياد الشاب إرادة قوية وعقل عنيد، وكانت فكرة الانتقام قد استحوذت عليه تمامًا، حيث لم تترك مجالًا لأي مشاعر أخرى، ولكونه رجلًا عمليًّا قبل كل شيء، فقد أدرك سريعًا أن حتى جسده القوي لن يستطيع تحمل هذا الضغط المستمر الذي كان يفرضه عليه، فنومه في العراء وافتقاره إلى الطعام الصحي كانا يبليان جسده، ولو أنه مات كالكلب بين صخور الجبال فكيف سينتقم إذن؟! فالموت كان سينال منه لا محالة لو استمر على هذا المنوال، وسيكون ذلك بالتأكيد في مصلحة عدوه، فعاد كرهًا إلى مناجم نيفادا القديمة كي يستعيد صحته ويجمع ما يكفي من المال، لتحقيق هدفه دون حرمان.

كان ينوي أن يغيب مدة عام واحد على أقصى تقدير، لكن ظروفًا غير متوقعة حالت دون مغادرته المناجم لقرابة خمسة أعوام، مع ذلك وحتى بعد الخمسة أعوام، لم تكن ذكرى الظلم الذي تعرض له ولا رغبته في الانتقام أقل حدة من تلك الليلة التي لا تُنسى، الليلة التي وقف فيها أمام قبر جون فيرير.

عاد إلى مدينة سولت ليك متنكرًا وتحت اسم مستعار، غير آبه بما قد يحدث له ما دام سيسعى لتحقيق العدالة، ولكنه وجد هناك أخبارًا سيئة في انتظاره، فقد وقع شقاق بين صفوف الشعب المختار قبل بضعة أشهر بسبب تمرد بعض أعضاء الكنيسة الأصغر سنًّا ضد سلطة كبار الحكماء، فكانت النتيجة أن انفصل عدد من الساخطين والذين غادروا مدينة يوتا وصاروا من الأغيار، وكان من بينهم دريبر وستانجرسون، ولم يعرف أحد إلى أين قد ذهبوا. انتشرت شائعات مفادها أن دريبر نجح في تحويل جزء كبير من أملاكه إلى أموال سائلة، وأنه رحل عن المدينة كرجل ثري، بينما كان رفيقه ستانجرسون فقيرًا بالمقارنة به، لكن لم يكن لديه أدنى فكرة أين يمكن له أن يجدهما.

من الممكن أن يتخلى الكثير من الرجال عن فكرة الانتقام مهما كانت رغبتهم فيه قوية أمام مواجهة كل هذه الصعوبات، لكن جيفرسون هوب لم يفكر في التراجع ولو للحظة، وسافر من مدينة إلى مدينة عبر الولايات المتحدة بحثًا عن أعدائه، معتمدًا على القدر القليل الذي يملكه من المال الذي جناه من خلال عمله، ومرت سنة بعد سنة وشاب شعره الأسود، لكنه ما زال يتنقل؛ بحثًا عن طريدته وكأنه كلب بوليسي، تتملكه فكرة واحدة ورغبة أكيدة في الوصول إلى هدف واحد كرس حياته لأجله، وفي النهاية أثمرت مثابرته. لم تكن سوى لمحة لوجه في النافذة، عرف منها أن الرجلين اللذين يلاحقهما موجودان في كليفلاند بأوهايو، فعاد إلى مسكنه البائس بخطة مرتبة جيدًا للانتقام، ولكن لسوء حظه أن دريبر رآه من النافذة وعرفه ورأى نية القتل في عينيه، فسارع إلى الشرطة بصحبة ستانجرسون، الذي كان قد أصبح سكرتيره الخاص، وأوضحا أنه ثمة خطر على حياتهم بسبب غيرة وكراهية خصم قديم. وفي نفس الليلة، اقتيد جيفرسون هوب إلى الحجز ولم يتمكن من العثور على شخص يكفله، فبقي محتجزًا

هناك لبضعة أسابيع، وعندما أُفرِج عنه أخيرًا ذهب إلى منزل دريبر فوجده مهجورًا، وعلم أنه سافر مع سكرتيره الخاص إلى أوروبا.

ثمة مرة أخرى تُوِّجت فيها محاولة انتقامه بالفشل، لكن حزازته الشديدة دفعته مجددًا لمواصلة المطاردة، غير أنه كان يحتاج إلى المال، فاضطر لأن يعود إلى العمل لفترة من أجل توفير المال اللازم لرحلته المقبلة، وأخيرًا سافر إلى أوروبا بعد أن جمع ما يكفي من المال من أجل معيشته هناك، وتتبع أعداءه من مدينة إلى أخرى وهو يمارس أعمالًا متواضعة لتوفير نفقات السفر، لكنه لم يدركهم قط. فعندما وصل إلى سانت بطرسبرغ كانا قد غادرا إلى باريس، وعندما تبعهما إلى هناك علم أنهما قد انطلقا للتو إلى كوبنهاغن، وعندما وصل إلى العاصمة الدنماركية كان متأخرًا عنهما لبضعة أيام أيضًا، ووجد أنهما قد سافرا إلى لندن حيث نجح أخيرًا في اللحاق بهم.

أما فيما يتعلق بما حدث في لندن، فلا يمكننا أن نفعل شيئًا أفضل من أن نقتبس رواية «الصياد العجوز» نفسه، كما سجلت في مذكرات الدكتور واتسون والتي نتعهد بالالتزام بها.

الفصل السادس

تكملة ذكريات الدكتور جون واتسون

لم يبدُ أن مقاومة سجيننا الغاضبة كانت تنطوي على أي ضغينة ضدنا، فعندما وجد نفسه عاجزًا عن المقاومة، ابتسم لنا بلطف وأعرب عن أمله في ألا يكون قد سبَّب أذىً لأي منا أثناء الشجار، ثم قال لشيرلوك هولمز:

– أعتقد أنك ستأخذني إلى مركز الشرطة، على كل حال إن سيارتي في الأسفل عند الباب فلو حللت قيود قدمي قليلًا سأنزل إليها بنفسي، فأنا لم أعد خفيفًا كما اعتدت أن أكون في السابق، لكي تستطيعوا حملي إلى الأسفل.

تبادل جريجسون وليستراد النظرات كما لو كانا يظنان أن اقتراحه ينطوي على قدر من الجرأة، لكن هولمز نفَّذ ما قاله الرجل المقبوض عليه فورًا، وفك المنشفة التي كنا قد ربطناها حول قدميه. وقف الرجل على قدميه ومدد ساقيه كما لو كان يؤكد لنفسه أنهما أصبحتا حرَّتَين مرة أخرى، وأذكر أنني حين رأيته قلت لنفسي إنه من النادر أن أرى رجلًا ذا بنية جسدية أقوى منه، كما كان وجهه الأسمر الملفوح من الشمس محفورًا عليه تعبيرات مفعمة بالعزيمة والطاقة التي كانت على نفس قدر قوته.

قال وهو يحدق إلى زميلي في السكن بإعجاب واضح:

– لو أن مقعد رئيس الشرطة كان شاغرًا، فأعتقد أنك الرجل المناسب له، فالطريقة التي اتبعتَ بها أثري كانت مثيرة للدهشة.

قال هولمز للمحققين:

– من الأفضل أن تأتيا معي.

فقال ليستراد:

– يمكنني أن أقود بكم العربة.

– حسنًا! ويمكن لجريجسون أن يركب معي بالداخل، وأنت أيضًا أيها الطبيب، لقد اهتممت بالقضية ويمكنك أن تأتي معنا.

وافقتُ بكل سرور ونزلنا جميعًا معًا. ولم يحاول المقبوض عليه الهروب، بل دخل إلى العربة التي كانت في الأصل عربته، وجلس بهدوء حتى تبعناه، صعد ليستراد ليركب مكان السائق وجعل الحصان ينطلق، ووصلنا إلى وجهتنا في وقت قصير جدًّا. وهناك دخلنا إلى حجرة صغيرة، حيث قام أحد ضباط الشرطة بتسجيل اسم المتَّهَم واسم القتيلين. كان الضابط شاحب الوجه متبلد الشعور، يقوم بعمله بطريقة آلية مملة.

قال الضابط:

– سوف يعرض المتَّهم على القضاء في خلال أسبوع. أما الآن، فهل لديك أي شيء تود أن تقوله يا سيد جيفرسون هوب؟ لكني أحذرك من أن كلماتك ستُسجل وقد تُستخدم ضدك.

فقال المتَّهم بهدوء:

– لدي الكثير لكي أقوله، أريد أن أخبركم بكل شيء عما حدث أيها السادة.

فسأله الضابط:

– أليس من الأفضل أن تؤجل اعترافك لوقت المحاكمة؟

أجاب:

– لا، فقد لا أحاكم أبدًا، ولا داعي لنظرة الذهول هذه فأنا لا أفكر في الانتحار.

ثم التفت ونظر لي بعينيه الداكنتين الشرستين وسألني:

– هل أنت طبيب؟

فأجبته قائلًا:

– نعم.

أشار إلى صدره بيديه المقيدتين وقال بابتسامة:

– ضع يدك هنا إذن.

وعندما وضعت يدي على صدره أدركت في الحال مدى سرعة واضطراب خفقان قلبه، فقد بدت جدران صدره وكأنها تهتز وترتجف مثلما يهتز المحرك القوي، حتى إنني في سكون الغرفة استطعتُ أن أسمع صوت طنين وأزيز يصدر منه.

فصحت قائلًا:

– يا إلهي! إنك مصاب بتوسع في الشريان الأورطي[8].

قال بهدوء:

– نعم هذا ما يسمونه. لقد ذهبتُ إلى الطبيب في الأسبوع الماضي بخصوص هذا الموضوع، فأخبرني أنه على وشك الانفجار خلال عدة أيام، كانت حالته تزداد سوءًا منذ سنوات. لقد أصبت به بسبب الإجهاد الشديد وسوء التغذية اللذين تعرضت لهما أثناء حياتي في البرية بين جبال سولت ليك. ولكنني أتممتُ مهمتي الآن ولا يهمني إن كنت سأموت قريبًا، كل ما أريده هو توضيح الأمر، فلا أريد أن يتذكرني أحد كأي سفاح عادي.

أجرى الضابط والمحققان نقاشًا سريعًا حول ما إذا كان من الصواب أن يسمحوا له برواية قصته، ثم سألني الضابط قائلًا:

– هل تعتبر أن هناك خطرًا قريبًا على حياته أيها الطبيب؟

أجبت:

– نعم، بالتأكيد.

فقال الضابط:

– إذن في هذه الحالة أظن أنه من واجبنا ومن مصلحة العدالة أن نستمع إلى أقواله. لك الحرية في رواية قصتك يا سيدي، ولكني أحذرك مرة أخرى من أن كل كلمة سوف تُسجل.

قال المتَّهم:

سأجلس بعد إذنكم، فإن مرضي هذا يجعلني أشعر بالتعب بسرعة، والشجار الذي دار بيننا من نصف ساعة لم يحسِّن الوضع بأي حال، أنا على حافة القبر وليس من المحتمل أن أكذب عليكم، فكل كلمة سأنطق بها هي حقيقة مطلقة، وكيفية استخدامكم لها لا تُهمني أبدًا.

بهذه الكلمات استلقى جيفرسون هوب على كرسيه وبدأ يسرد هذا البيان التالي الجديد بالاهتمام، وكان يتحدث بهدوء وبأسلوب منهجي منظم، كما لو كانت الأحداث التي يرويها هي أحداث عادية أو مألوفة. ويمكنني أن أؤكد على دقة هذه الرواية الملحَقة لأنني تمكنت من الوصول إلى دفتر الملاحقات الخاص بليستراد حيث دوَّن فيه كلمات المتَّهم تمامًا كما قالها.

قال:

– لا يهمكم كثيرًا أن تعرفوا سبب كراهيتي لهذين الرجلين، يكفي أن أقول لكم إنهما تسببا في موت شخصين، أب وابنته، ولهذا السبب كان يجب أن يدفعا الثمن بموتهما، ولكن بعد مرور وقت طويل على جريمتهم كان من المستحيل عليَّ أن أستطيع إدانتهما أمام أي محكمة، وبما أنني على دراية بجريمتهما، فقد قررت أن أكون أنا القاضي والمحلفين ومنفذ الحكم كلهم في آن واحد، ولو كنتم مكاني لفعلتم الشيء نفسه، بافتراض أن لديكم من الرجولة ما يكفي.

تلك الفتاة التي أتحدث عنها كانت ستتزوجني قبل عشرين عامًا لولا أنها أُجبِرت على الزواج من هذا المدعو دريبر، وانفطر قلبها لهذا السبب، وقبل أن تدفن كنت قد أخذت خاتم الزواج من أصبعها وأقسمت أن يكون هذا الخاتم آخر شيء تراه عيناه وهو يحتضر، وأن تكون الجريمة التي سيموت بسببها هي آخر ما يفكر فيه. لقد حملتُ الخاتم معي وتتبعتُه هو وشريكه عبر قارتين حتى أمسكتُ بهما، كانا يظنان أنهما يستطيعان الفرار مني، ولكنهما لم يستطيعا، وها قد نلت منهما، فإذا مت غدًا كما هو مرجح، فسأكون قد مت بعدما نفذتُ مهمتي على أكمل وجه، فقد لقيا مصرعهما على يدي، وكان هذا كل ما أتمناه وأرغب فيه.

كانا ثريين، وكنت فقيرًا، فلم يكن من السهل عليَّ تتبعهما. عندما وصلتُ إلى لندن كانت جيوبي شبه فارغة، فكان عليَّ أن أجد عملًا من أجل أن أكسب عيشي، كما أن قيادة العربات وركوب الخيل في بساطة المشي عندي، لذا تقدمتُ بطلب لأحد مكاتب تأجير عربات الأجرة، وسرعان ما توظفتُ، وكان عليَّ إعطاء المالك مبلغًا معينًا من المال كل أسبوع، وأيًّا كان ما يتبقى بعد ذلك فيمكنني أن أحتفظ به لنفسي، ونادرًا ما كان يتبقى مبلغ كبير، لكني تمكنت من تدبير معيشتي بطريقة ما. كان أصعب ما واجهته في الأمر هو معرفة الطرق، فمن بين كل المتاهات التي ابتدعها البشر أعتقد أن هذه المدينة هي الأكثر إرباكًا، ومع أنني كنت أحتفظ بخريطة بجانبي، لكن ما أن عرفت مواقع الفنادق والمحطات الرئيسة حتى صرت أسير على نحو جيد.

لقد مضى بعض الوقت حتى تمكنت من معرفة أين يعيش الرجلان، فقد سألتُ وتحريتُ حتى وصلتُ إليهما أخيرًا. كانا يسكنان في نزل في كامبرويل على الجانب الآخر من النهر، وعندما وجدتهما عرفتُ أنهما قد أصبحا تحت رحمتي. كنت قد أطلقتُ لحيتي ولم يكن هناك احتمال لأن يستطيعا التعرف عليَّ، ونويتُ أن أتتبعهما حتى تسنح لي الفرصة، وكنت قد عقدتُ العزم على ألا أدعهما يفلتان مني مرة أخرى. إلا أنهما كانا على وشك الهروب مع كل ذلك، كنت أتعقبهما في كل مكان يذهبان إليه في لندن، أحيانًا كنت أتبعهما في عربتي وأحيانًا أخرى سيرًا على قدمي، إلا أن الطريقة الأولى كانت الأفضل لأنهما لم يتمكنا من الابتعاد عني حينها. ولم أستطع العمل وكسب المال إلا في الصباح الباكر أو في وقت متأخر من الليل؛ ولهذا السبب بدأت أتأخر عن الدفع لصاحب العربة، ولكنني لم أكن أبالي بذلك ما دمت أستطيع الوصول للرجلين اللذين أردتهما. وقد كانا ماكرين للغاية، لا بد أنهما كانا يشكان أن هناك أحدًا ما يلاحقهما، حيث لم يخرج أي منهما بمفرده ولم يغادرا النزل قط بعد حلول الليل، وهكذا ظللت أتتبعهما بالعربة كل يوم مدة أسبوعين، ولم أرهما مفترقين عن بعضهما ولو لمرة واحدة. كان دريبر ثملًا معظم الوقت، لكن ستانجرسون لم يغفل عنه قط، كنت أراقبهما طوال الوقت، ولم أرَ ولو نصف فرصة، ولكنني لم أصب بالإحباط قط لأن شيئًا ما جعلني أشعر أن الوقت قد اقترب، لكن خوفي الوحيد كان من أن هذا الشيء في صدري قد ينفجر في وقت قريب جدًّا وألا أستطيع إنجاز مهمتي.

وأخيرًا وفي إحدى الأمسيات كنت أقود العربة ذهابًا وإيابًا في توركاي تراس، وهو الشارع الذي يسكنان فيه، وهناك رأيت عربة تقف أمام باب منزلهما، ثم نُقلت بعض الأمتعة إليها وبعد وقت قصير تبعها دريبر وستانجرسون وانطلقا بالعربة. فجعلت حصاني ينطلق بالعربة حتى لا يغيبا عن نظري، وكنت قلقًا جدًّا خشية أن يغيرا مكان إقامتهما، ولما نزلا عند محطة يوستون تركت حصاني بحراسة صبي وتبعتهما إلى الرصيف، سمعتهما يسألان عن قطار ليفربول، فأجابهما الحارس بأن هناك قطارًا قد انطلق للتو إلى ليفربول وأن القطار الآخر لن ينطلق قبل عدة ساعات. بدا أن ذلك ضايق ستانجرسون على خلاف دريبر الذي بدا سعيدًا بالأمر، اقتربت منهما كثيرًا في وسط الزحام حتى صرت قادرًا على سماع كل كلمة ينطقان بها، قال دريبر إن لديه عددًا من الأمور الصغيرة الخاصة التي يجب أن يهتم بها، وطلب من رفيقه أن ينتظره في المحطة على أن يعود إليه سريعًا، فاحتج رفيقه على ذلك قائلًا إنهما قد عزما على ألا يفترق أي منهما عن الآخر. فأجابه دريبر بأنها مسألة حساسة وأن عليه الذهاب بمفرده، ولم أستطع فهم ما قاله ستانجرسون ردًّا على هذا الكلام، ولكن دريبر انفجر غضبًا وأخذ يسب ستانجرسون، ويذكره بأنه ليس إلا خادمه المأجور وأنه ليس من المفترض أن يملي عليه أفعاله، وهنا تخلى السكرتير عن وظيفته السيئة وساومه على أن ينضم إليه في فندق هاليداي إذا فاته القطار الأخير، فأجابه دريبر بأنه سيعود إلى رصيف المحطة قبل الساعة الحادية عشرة، ثم شق طريقه بين الزحام وخرج من المحطة.

وأخيرًا حانت اللحظة التي انتظرتها طويلًا، وها قد صار ألد أعدائي في قبضتي، فحينما كانا معًا كان بإمكانهما أن يحميا بعضهما بعضًا، ولكن وبعد أن افترقا فقد أصبحا تحت رحمتي، ومع ذلك فلم أتصرف بتهور لا داعي له، فقد كانت خطتي معدة مسبقًا، فلا تشفِّي في انتقام لا تتسنى للخصم فيه فرصة لكي يدرك هوية من يهاجمه، وسبب الجزاء الذي يلقاه. وقد رتبت خطتي بحيث يكون لدي

فرصة لأجعل الرجل الذي ظلمني يدرك أن خطيئته القديمة هي التي أودت به. وقد صادف قبل عدة أيام أن رجلًا كان يعمل في صيانة بعض المنازل في شارع بريكستون أوقع مفتاحًا واحدًا منها في عربتي، وقد عاد الرجل في نفس الليلة يطلب مفتاحه، لكنني كنت قد تمكنت من صنع نسخة طبق الأصل منه، والتي عن طريقها أتيحت لي فرصة الدخول إلى مكان واحد في هذه المدينة الكبيرة حيث أستطيع أن أكون حرًا دون أن يقاطعني أحد، لكن ظلت كيفية إيصال دريبر إلى هذا المنزل هي المشكلة الصعبة التي كان عليَّ أن أجد لها حلًا.

مشى دريبر على طول الشارع ودخل إلى واحدة أو اثنتين من الحانات، وبقي لنصف ساعة تقريبًا في آخرهما، وعندما خرج كان يترنح في مشيته، ومن الواضح أنه كان مخمورًا. كانت هناك عربة صغيرة أمام عربتي مباشرة فأوقفها وركب فيها، وتبعتُه من قرب لدرجة أن أنف حصاني كان طوال الطريق على بعد نحو ياردة واحدة فقط من سائق عربته، عبرنا جسر واترلو وقطعنا أميالًا عبر شوارع عدة حتى وجدنا أنفسنا، لدهشتي، قد عدنا إلى النزل الذي يسكنه. لم أتمكن من تخمين السبب وراء عودته، لكنني أوقفتُ عربتي على بعد نحو مئة ياردة من النزل، دخل هو بينما انطلق السائق بعيدًا.

قطع هوب حكايته قائلًا:

– أعطني كوبًا من الماء من فضلك، فالكلام جعل فمي يجف.

فأعطيته كأسًا من الماء وشربها ثم أكمل حديثه قائلًا:

– هذا أفضل. حسنًا، انتظرتُ لربع ساعة أو أكثر ثم سمعت صوت ضجيج، وكأن هناك أناسًا يتعاركون داخل المنزل، وبعد لحظات فُتح الباب وخرج منه رجلان، أحدهما كان دريبر والآخر كان شابًا لم أره من قبل، وكان ذلك الشاب يمسك بدريبر من ياقة معطفه ويجره منها إلى قمة الدرج، وهناك قام بضربه وركله بقوة رمت به إلى نصف الطريق، وصاح به الشاب وهو يهز عصاه في وجهه متوعدًا: «أيها الكلب، سألقنك درسًا لأنك أهنت فتاة شريفة!»

كان الشاب غاضبًا جدًّا ومنفعلًا للغاية، لدرجة أنني حسبته سيضرب دريبر بهراوته، ولكنه ما أن سقط أرضًا على الطريق حتى قام يركض بعيدًا بأقصى سرعته حتى وصل إلى المنعطف، وهناك رأى عربتي فأشار إليها ثم قفز بداخلها وقال: «خذني إلى فندق هاليداي».

عندما ركب في عربتي شعرت بقلبي يرقص فرحًا لدرجة أنني خشيت أن تسوء حالة قلبي وأن ينفجر شرياني في تلك اللحظة، قدت عربتي ببطء وأنا أفكر في أفضل ما يمكنني القيام به، فلربما كنت آخذه إلى الريف خارج المدينة، حيث توجد بعض الطرق المهجورة والتي يمكنني أن أجري فيها مقابلتي الأخيرة معه. كدت أستقر على ذلك قبل أن يُقدِّم هو الحل الأمثل لي، فقد سيطر عليه هوسه بالخمر مرة أخرى فأمرني بالتوقف أمام إحدى الحانات، ودخل إليها بعد أن طلب مني انتظاره، وبقي في الداخل حتى موعد الإغلاق، ولما خرج كان ثملًا تمامًا فعرفتُ أنه قد أصبح لعبة بين يدي.

لا تتخيلوا أنني قصدت أن أقتله بدم بارد، مع أنه كان سيُعد مجرد تحقيق للعدالة لو فعلت ذلك، إلا أنني لم أستطع إجبار نفسي على القيام به، حيث كنت قد قررت منذ فترة طويلة أن يحظى بفرصة لإنقاذ حياته إن استطاع استغلالها، فمن بين الوظائف العدة التي عملت بها في أمريكا خلال حياة

التجوال التي عشتها، كنت في وقت من الأوقات أعمل بوابًا وعامل نظافة خاصًّا بالمختبر في جامعة يورك، وفي أحد الأيام كان الأستاذ يلقي محاضرة عن السموم، وعرض على طلابه بعض المواد القلوية كما أسماها، والتي استخرجها من بعض السموم التي يستخدمونها في أمريكا الجنوبية في تسميم رؤوس السهام، والتي كانت قوية جدًّا لدرجة أن تناول أصغر حبة منها تؤدي إلى الموت الفوري، وكنت قد عرفت الزجاجة التي حُفظ هذا المستحضر فيها، ولما انصرفوا جميعًا ذهبت لآخذ القليل منها، وكنت صيدليًّا جيدًا إلى حد ما فوضعتُ هذه المادة القلوية في حبوب صغيرة قابلة للذوبان، ووضعتُ كل حبة في علبة مع حبة أخرى مشابهة، لكنها لا تحتوي على السم، وقررت أنه عندما يحين الوقت وتتاح لي الفرصة سأدع كلًا من الرجلين يختار حبة واحدة من إحدى هذه العلب، بينما أقوم أنا بتناول الحبة الأخرى، ستكون فتاكة تمامًا وأقل صخبًا من إطلاق النيران. منذ ذلك اليوم وأنا أحمل دائمًا معي علب حبوب الدواء هذه، وها قد حان الوقت لاستخدامها.

كانت الساعة أقرب إلى الواحدة، وكانت ليلة عاصفة قارصة البرودة، تعصف فيها الرياح بشدة وتمطر السماء سيولًا، لكن بعكس كآبة الجو كنت أشعر بسعادة غامرة حتى إنني كدت أصرخ من فرط الحماس والغبطة، فلو أراد أي منكم أيها السادة شيئًا ما بشدة وظل يتوق له لمدة عشرين عامًا، ثم وجده فجأة في متناول يديه لتفهَّمَ شعوري. أشعلت سيجارًا وأخذت أنفخ فيه لكي أهدئ أعصابي، ولكن يديَّ كانتا ترتعشان وكان رأسي يخفق من الإثارة، فأثناء ما كنت أقود العربة كان بإمكاني رؤية جون فيرير العجوز ولوسي الجميلة ينظران إليَّ من الظلام ويبتسمان لي بنفس الوضوح الذي أراكم به في هذه الغرفة، ظلوا أمامي طوال الطريق، كل منهما على جانب من الحصان حتى توقفت عند المنزل في شارع بريكستون.

لم يكن هناك وجود لأي شخص يمكن رؤيته، ولم أسمع أي صوت باستثناء صوت هطول المطر، وعندما نظرت عبر النافذة إلى داخل العربة وجدت دريبر غارقًا في نوم ثمالته، فهززته من ذراعه وقلت له:

– حان الوقت لتنزل.

فقال:

– حسنًا أيها السائق.

كان يعتقد على ما أظن أننا قد وصلنا إلى الفندق الذي ذكره لي، لأنه نزل دون أن ينطق بأي كلمة أخرى وتبعني عبر الحديقة، وكان عليَّ أن أسير إلى جانبه كي أبقيه ثابتًا، لأنه كان لا يزال غير متوازن إلى حدٍ ما، وعندما وصلنا إلى الباب فتحته وقدته إلى غرفة الاستقبال، وأقسم لك بأن الأب وابنته كانا يسيران أمامنا طوال الطريق.

قال وهو يجر قدميه متخبطًا في سيره:

– إنه ظلام دامس.

فقلت وأنا أشعل عود ثقاب لأضيء به شمعة كنت قد أحضرتها معي:

– سنحظى بالإضاءة سريعًا.

ثم التفت إليه حاملًا الشمعة ومسلطًا ضوءها على وجهي وقلت له:

- أتعرف من أكون؟

حدق إليَّ بعينين مشوشتين للحظة، ثم رأيت الرعب ينبثق منهما والفزع يضرب ملامح وجهه، فأدركت أنه عرفني. تراجع مترنحًا وقد شحب وجهه ورأيت العرق يتدفق على جبينه وأسنانه التي بدأت تصطك بقوة. وحينها أسندت ظهري إلى الباب وانفجرت في الضحك طويلًا وبصوت عالٍ. كنت أعرف أن الانتقام سيكون ممتعًا، ولكنني لم أتخيل قط أن أشعر بهذا الرضا التام الذي اعتراني.

أيها الكلب، لقد سعيت وراءك من مدينة سولت ليك إلى سانت بطرسبرغ، ودائمًا ما كنت تهرب مني، أما الآن فقد انتهى تجوالك أخيرًا، لأن أحدًا منا لن يرى الشمس غدًا.

ظل دريبر يتراجع إلى الخلف منكمشًا بينما كنت أتحدث، ورأيتُ في وجهه كيف كان يظنني جُنِنت، ولعلي كنت كذلك في حينها، فقد كان الدم ينبض في عروق صدغي بقوة شعرتُ كما لو أنها ضربات مطرقة ثقيلة، وأعتقد أنني كنت سأصاب بنوبة ما، لولا نزيف أنفي الذي جعل الدم يتدفق خارجًا فأراحني منها.

أغلقتُ الباب وأخذتُ أهز المفتاح أمام وجهه وصحتُ به قائلًا:

- ما رأيك في لوسي فيرير الآن؟ لقد كان العقاب بطيئًا في الوصول إليك، ولكن ها قد أدركك أخيرًا.

كانت شفتاه ترتعشان وأنا أتكلم، وكان على وشك أن يتوسل إليّ من أجل حياته، لكنه كان يعلم جيدًا أن لا فائدة من ذلك.

قال متلعثما:

- هل ستقتلني؟

أجبته قائلًا:

- ليس قتلًا، من يتحدث عن قتل كلب مجنون؟ أين كانت رحمتك عندما جررت حبيبتي المسكينة من جانب أبيها المذبوح، وأخذتها بعيدًا لتجبرها على أن تصبح واحدة من حريمك الوقحات اللعينات.

صرخ قائلًا:

- لست أنا من قتل أبيها.

دفعت بالعلبة أمامه وصرخت بقوة قائلًا:

- لكنك أنت من حطم قلبها البريء، ليحكم الله العلي بيننا، اختر إحدى الحبتين وابلعها، فإن إحداهما تحمل الموت والأخرى تحمل الحياة، وسأبلع أنا الحبة التي تتركها. دعنا نرى إذا ما كان العدل سيأخذ مجراه بيننا الآن.

تراجع إلى الخلف وهو يطلق صرخات عنيفة ويتوسل طلبًا للرحمة، لكنني سحبتُ سكيني ووضعتها على عنقه حتى أطاعني، ومن ثم بلعتُ الحبة الأخرى ووقفنا أمام بعضنا وجهًا إلى وجه صامتَين لمدة دقيقة أو أكثر، في انتظار أن نرى من منا سيعيش ومن سيموت، وهل أنسى تلك النظرة التي ارتسمَت على وجهه حين بدأ يشعر بالألم وأدرك أن السم كان يتخلل جسده؟ ضحكتُ حين رأيتُ هذه النظرة

وحملتُ خاتم زواج لوسي أمام عينيه، لكن ذلك لم يدم طويلًا، فقد كان مفعول المادة القلوية سريعًا. أصابته نوبة من الألم جعلت ملامحه تتشنج، ثم مدَّ يديه أمامه وبدأ يترنح، ثم أطلق صرخة مبحوحة وسقط بقوة على الأرض، فقلبته بقدمي ووضعت يدي على قلبه، لكن لم يكن ثمة نبض، كان قد مات!

وإذا بالدم يسيل من أنفي، لكنني لم أنتبه إليه من البداية، ولا أعرف من أين جاءت إلى رأسي فكرة أن أستخدمه للكتابة على الجدار، ربما كانت فكرة خبيثة لتضليل الشرطة، لأنني كنت مبتهجًا وسعيدًا وتذكرت أن هناك شخصًا ألمانيًّا عُثِر على جثته في نيويورك وكلمة (RACHE) مكتوبة فوقه على الجدار، وقيل في الصحف في ذلك الوقت إن جماعات سرية هي التي فعلت ذلك، وتوقعتُ أن ما يحير شرطة نيويورك من شأنه أن يحير شرطة لندن، فغمستُ إصبعي في دمي وكتبت به في مكان مناسب على الجدار، ومن ثم نزلت إلى عربتي ولم يكن هناك أحد في الشارع فقد كانت الليلة عاصفة جدًّا، وبعد أن قطعت مسافة قصيرة بعربتي وضعت يدي في جيبي الذي عادة ما أحتفظ فيه بخاتم لوسي، لكنه لم يكن هناك، فصعقني هذا لأنه كان التذكار الوحيد الذي أمتلكه منها. ظننت أنني ربما أسقطتُه حين انحنيتُ فوق جثة دريبر، فرجعت إلى المنزل وتركت عربتي في شارع جانبي ودخلت إلى المنزل بجرأة لأنني كنت مستعدًا لمواجهة أي شيء مقابل استعادة الخاتم، ولما وصلت إلى هناك اصطدمت بضابط شرطة كان خارجًا من المنزل فتظاهرت بأنني ثمل تمامًا حتى أزيل أي شكوك لديه.

وهكذا انتهت حياة إينوك دريبر، وكل ما كان عليَّ فعله بعد ذلك هو تكرار ما فعلته مرة أخرى مع ستانجرسون، حتى يدفع ثمن ما فعله بجون فيرير. كنت قد علمت أنه يقيم في فندق هالياداي فرُحتُ أتسكع حول الفندق طوال اليوم، لكنه لم يخرج قط. أعتقد أنه شك أن شيئًا ما قد حدث عندما لم يظهر دريبر، فقد كان ستانجرسون ماكرًا ودائمًا ما كان يحترس لنفسه، ولكنه إذا كان يعتقد أن بقاءه في الداخل كان سيمنعني من الوصول إليه فقد كان مخطئًا للغاية، فسرعان ما عرفت أي النوافذ هي نافذة غرفته، وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي نجحت في شق طريقي بالتسلق إلى غرفته مستخدمًا أحد السلالم التي كانت ملقاة في الممر الخلفي للفندق، وفي الفجر كنت قد دخلت إلى غرفته وأيقظته، لأخبره أن الوقت قد حان لكي يدفع ثمن إزهاقه لروح بريئة منذ وقت طويل. وصفت له الطريقة التي مات بها دريبر وأعطيته نفس الفرصة في الاختيار بين الحبتين، لكنه بدلًا من أن يغتنم فرصته التي قد أتحتُها له في النجاة، نهض من سريره وهجم بيديه على عنقي محاولًا خنقي، وفي محاولتي للدفاع عن نفسي طعنته في قلبه. لكن الأمر كان سيؤول إلى نفس النتيجة على أي حال، لأن العدالة الإلهية لم تكن لتسمح لليد المذنبة أن تلتقط سوى الحبة المسمومة.

قال هولمز بحرارة:

– لا شك في ذلك.

لم يبقَ سوى القليل لأحكيه، وهذا جيد لأنني أكاد أموت من التعب. واصلت العمل على عربتي لمدة يوم أو نحو ذلك، وبنية أن أستمر في العمل عليها حتى أتمكن من توفير ما يكفي من المال لعودتي إلى أمريكا. كنت واقفًا في الساحة عندما جاء صبي رث الثياب يسألني عما إذا كان هناك سائق أجرة يدعى جيفرسون هوب، وقال إن عربته مطلوبة من قبل سيد يسكن في المنزل رقم (221ب) في شارع بيكر،

فذهبت إلى هناك ولم أكن أشك في وجود أي خطر أو أذى، وإذا به هذا الرجل هنا الذي قام بوضع القيود حول معصمي بخفة لم أرها مسبقًا في حياتي. تلك هي قصتي كاملة، ربما تعتبروني قاتلًا، ولكنني أتمسك باعتبار نفسي مُنفِّذًا للعدالة مثلكم تمامًا.

كانت قصة الرجل مثيرة للغاية، وكانت طريقته في حكايتها مؤثرة جدًّا، لدرجة أننا جلسنا جميعًا صامتين نستمع له باهتمام كبير، حتى المحققان المحترفان اللذان كانا معتادين على الجرائم بكل تفاصيلها، بديا مهتمين بشدة بقصة هذا الرجل. وعندما انتهى جلسنا صامتين لبضع دقائق في سكون تام لم يكسره إلا صوت خربشة قلم ليستراد الذي كان يضيف اللمسات الأخيرة في سجله الصغير.

وقال شيرلوك هولمز أخيرًا:

– هناك نقطة واحدة فقط أود معرفة المزيد عنها. من يكون شريكك الذي جاء يطلب الخاتم الذي أعلنت عنه في الصحيفة؟

غمز المتَّهم لصديقي مازحًا وقال:

– يمكنني أن أخبرك بأسراري الخاصة، ولكنني قد أوقع بأشخاص آخرين في المتاعب. عندما رأيت إعلانك اعتقدت أنه قد يكون فخًّا، ولكن كان من المحتمل أيضًا أن يكون هو فعلًا الخاتم الذي أردته، لذا تطوع صديقي بأن يذهب ويتحقق من الأمر، وأعتقد أنك تعترف بأنه فعل ذلك بذكاء.

علق الضابط بحزم قائلًا:

– والآن أيها السادة، يجب الامتثال للقانون. سوف يعرض المتهم أمام القضاة يوم الخميس وسيتطلب الأمر حضوركم، وحتى ذلك الحين سأكون أنا مسؤولًا عنه. وكان قد رنَّ الجرس أثناء حديثه، فجاء اثنان من الحراس واقتادا جيفرسون هوب بينما خرجت أنا وصديقي من مركز الشرطة واستقللنا عربة أجرة للعودة إلى شارع بيكر.

هي حالة يتوسع فيها جزء من الشريان الأورطي في المنطقة التي يكون فيها جدار الشريان ضعيفًا.

الفصل السابع

الاستنتاج

تلقينا جميعًا تنبيهات بوجوب الحضور أمام القضاة في يوم الخميس، ولم يكن ذلك طلبًا لشهادتنا، فقد تولى القاضي الأعلى هذه القضية، حيث استُدعي جيفرسون هوب أمام المحكمة التي ستحقق له العدالة التامة. ففي الليلة التي أعقبت أسره انفجر شريانه وعثر عليه في الصباح ممددًا على أرضية الزنزانة، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة، وكأنه كان راضيًا في لحظة وفاته عما فعله في حياته وعن المهمة التي أنجزها على أكمل وجه.

قال شيرلوك هولمز بينما كنا نتجاذب أطراف الحديث في مساء اليوم التالي:

– من المؤكد أن جريجسون وليستراد سوف ينزعجان بشأن خبر وفاته، فمن أين لهما بالدعاية الآن؟

فأجبته قائلًا:

– لا أرى أن لهما دورًا كبيرًا في القبض عليه.

قال رفيقي بمرارة:

– ليس المهم هو ما تفعله حقًّا في هذا العالم، بل كيف تجعل الناس يصدقون أنك فعلته.

وبعد فترة من الصمت تابع قائلًا بشيء من البهجة:

– لا عليك، فما كنت لأفوِّت هذا التحقيق من أجل أي شيء، لا أذكر أنني مررتُ على قضية أفضل منها، فهي على بساطتها إلا أن بها العديد من النقاط المفيدة.

فصحت قائلًا:

– أتقول إنها بسيطة!

ابتسم شيرلوك هولمز عندما رأى الدهشة على وجهي وقال:

– حسنًا، في واقع الأمر يصعب وصفها بغير ذلك، والدليل على بساطتها هو أنني استطعت بواسطة بعض الاستنتاجات العادية ومن دون أي مساعدة أن أضع يدي على المجرم في غضون ثلاثة أيام فقط.

فقلت:

– نعم، هذا الصحيح.

– سبق وأن أوضحت لك أن كل ما هو خارج عن المألوف عادةً ما يكون دليلًا وليس عائقًا، وفي قضية مثل هذه يكون من الأفضل أن تكون قادرًا على التفكير على نحو معاكس، وهذا أسلوب مفيد جدًّا وسهل للغاية، لكن الناس لا يتمرنون عليه كثيرًا. ففي شؤون الحياة اليومية عادة ما يكون التفكير في الأمور بنفس تسلسل وقوعها هو الأكثر جدوى، ومن ثمَّ يُهمل التفكير في الاتجاه العكسي، فمن بين كل خمسين شخصًا يفكرون بنمط التفكير التركيبي، يمكننا أن نجد شخصًا واحدًا يفكر بنمط التفكير التحليلي.

قلت:

– أعترف بأنني لا أفهم ما تقول.

– كنت أتوقع ألا تفهمني بسهولة، لذا سأحاول توضيح الأمر بقدر الإمكان. سيقوم معظم الناس إذا وصفت لهم سلسلة من الأحداث بتوقع نتيجتها، سيكونون قادرين على ترتيب الأحداث معًا في عقولهم، واستنتاج ما قد يحدث في نهايتها. لكن عددًا قليلًا من الناس هم الذين لو أخبرتهم بنتيجة سيكون بإمكانهم أن يستنبطوا من وعيهم الداخلي تلك الخطوات التي أدت إلى حدوث هذه النتيجة. إنها القدرة التي أعنيها عندما أتحدث عن التفكير على نحو عكسي أو التفكير التحليلي.

فقلت:

– حسنا، لقد فهمت.

– في هذه القضية كانت النتيجة أمامنا، وكان علينا أن نعرف كل شيء آخر بأنفسنا. والآن دعني أحاول أن أوضح لك تسلسل الخطوات المختلفة في تفكيري. لنبدأ من البداية، اقتربت من المنزل سيرًا على قدميَّ كما تعلم، وكان عقلي خاليًا من أي انطباعات مسبقة. وبدأت في تفحص الطريق، وهناك كما أوضحت لك مسبقًا رأيت آثار عربة أجرة واضحة، وكنت قد تأكدت من خلال التحقيق بأنها بقيت هناك أثناء الليل. وأقنعت نفسي بأنها عربة أجرة وليست عربة خاصة، لأن المسافة بين العجلات كانت ضيقة، فإن عربات الأجرة في لندن أقل اتساعًا بكثير من عربات النبلاء الخاصة ذات الأربع عجلات.

كانت هذه أولى المعلومات التي حصلت عليها، ثم مشيت ببطء على طول ممر الحديقة الذي تصادف أنه يتكون من تربة طينية، وهي النوع المناسب تمامًا لإظهار آثار الأقدام. لا شك في أنه قد يبدو لك مجرد خط من الطين المدعوس، ولكن لعيني المدربتين فإن كل علامة على سطح هذه التربة تحمل معنى. لا يوجد فرع من فروع العلوم الجنائية تُهمل وهي ذات أهميته كبيرة، مثل فن تقفي آثار الأقدام، ولكن لحسن الحظ أنني دائمًا ما كنت أعطيه أهمية وتركيزًا كبيرًا، وقد صار مع كثرة الممارسة مهارة تلقائية عندي. وكنت قد رأيت آثار الأقدام الثقيلة لرجال الشرطة، ولكنني رأيت أيضًا مسار الرجلين اللذين مرا عبر الحديقة أولًا، وكان من السهل معرفة أنهما قد عبرا قبل الآخرين، حيث طُمِسَت آثارهما بالكامل في بعض الأماكن من قِبل آثار أقدام أخرى سارت فوقها. وبهذه الطريقة حصلتُ على الحلقة الثانية في السلسلة التي عرفت منها أن عدد الزوار الليليين كان اثنين، أحدهما فارع الطول (وقد توصلت لذلك عن طريق حسابي لطول خطوته)، والآخر يرتدي ملابس عصرية (استنادًا إلى الأثر الصغير الأنيق الذي تركه حذاؤه).

ولما دخلت المنزل تأكد لي هذا الاستنتاج الأخير، فقد رأيت الرجل صاحب الحذاء الأنيق ممددًا أمامي، إذن فالرجل الطويل هو القاتل، هذا إذا كان ما وقع هناك جريمة قتل حقًّا. ولم يكن هناك جروح في جسد القتيل، لكن التعبيرات المُحتدة على وجهه أكدت لي أنه توقع مصيره قبل أن يصيبه. فالناس الذين يموتون إثر مرض قلبي أو أي سبب طبيعي مفاجئ لا تظهر على ملامحهم بأي حال من الأحوال مثل هذه الانفعالات الحادة. وبعد أن شممت شفتي الرجل الميت لاحظت رائحة حادة بعض الشيء،

فاستنتجت أنه قد فُرض عليه تناول السم، واقتنعت بأنه أُجبر عليه بسبب ما ظهر على وجهه من تعبيرات الكراهية والخوف.

وقد توصلت لهذه النتيجة عن طريق الاستبعاد، فلا توجد أي فرضية أخرى تتناسب مع كل هذه الحقائق. لا تتخيل أنها فكرة جديدة لم يسمع بها أحد من قبل، فإعطاء السم قسريًّا ليس بالشيء الجديد في السجلات الجنائية بأي حال من الأحوال. فقضايا مثل قضية دولسكي في مدينة أوديسا، وقضية ليتغييه في مدينة مونتبيلييه يعرفها أي متخصص في علم السموم بالتأكيد.

والآن يأتي السؤال الأهم، والذي يتعلق بسبب الجريمة، فلم تكن السرقة هي الدافع وراء القتل، إذ لم تتم سرقة أي شيء. فهل يتعلق السبب بالسياسة إذن؟ أم أن السبب امرأة؟ كان هذا هو السؤال الذي واجهني، وكنت أرجح كفة افتراض السبب الثاني منذ البداية، فإن القتلة السياسيين يكونون راضين تمامًا بمجرد تنفيذ مهمتهم ثم الهروب، على عكس الطريقة التي نُفذت بها جريمة القتل هذه، فقد ارتُكبت بصورة متعمدة، وقد ترك الجاني آثار جريمته في جميع أنحاء الغرفة، ما يدل على أنه كان هناك طوال الوقت، إذن فلا بد أنه ضرر شخصي وليس سياسيًّا ما دعا هذا الشخص لمثل ذلك الانتقام المنهجي.

وعندما اكتُشفت الكتابة الموجودة على الجدار؛ مِلت إلى رأيي أكثر من أي وقت مضى، من المؤكد أن هذه الكتابة كانت مجرد فكرة لتضليل الشرطة، ثم حسم عثورنا على الخاتم المسألة بصورة نهائية، فمن الواضح أن القاتل استخدمه لتذكير ضحيته بامرأة ميتة أو غائبة. وعندما وصلتُ لهذه النقطة سألتُ جريجسون إن كان قد استفسر في برقيته إلى كليفلاند عن أي نقطة غريبة في سيرة السيد دريبر السابقة، وأجاب بالنفي كما تتذكر.

ثم بدأت في إجراء فحص دقيق للغرفة، وهو ما أكد لي تصوري عن طول القاتل، وزودني ببعض التفاصيل الإضافية كسيجار التريكنوبولي وطول أظافره. وكنت قد توصلت للاستنتاج، فمع غياب أي علامات تدل على نشوب عراك، خمنت أن الدم الذي غطى الأرض قد سال من أنف القاتل بسبب شده انفعاله، واستطعت أن ألاحظ أن مسار الدم كان متوافقًا مع آثار قدميه، ونادرًا ما يحدث مثل هذا الأمر لرجل بسبب الانفعال ما لم يكن قويًا جدًّا، لذا غامرت بافتراض أن القاتل كان الأرجح رجلًا قويًا ومتورد الوجه، وقد أثبتت الأحداث أنني حكمت على هذا الأمر بصورة صحيحة.

وبعد أن غادرت المنزل شرعت في القيام بما أهمله جريجسون، فأرسلت برقية إلى رئيس الشرطة في كليفلاند محددًا استفساري عن الظروف المتعلقة بزواج إينوك دريبر، وكان الجواب حاسمًا، فقد أخبرني أن دريبر قد تقدم بطلب الحماية القانونية ضد منافسه القديم في الزواج الذي يدعى جيفرسون هوب، وأن جيفرسون هوب هذا موجود في أوروبا، فعرفت في تلك اللحظة أنني أمسك بمفتاح هذا اللغز في يدي، وأن كل ما تبقى هو القبض على القاتل.

وكنت قد قررت في عقلي أن الرجل الذي دخل إلى المنزل مع دريبر هو نفسه سائق عربة الأجرة، فقد أظهرت لي العلامات الموجودة على الطريق أن الحصان تجول في الطريق على نحو يدل على أن أحدًا لم يكن مسؤولًا عنه، فأين يمكن أن يكون السائق إذن، إن لم يكن داخل المنزل؟ وكان من العبث أن

أفترض أن هناك رجلًا عاقلًا من الممكن أن يرتكب جريمة متعمدة، أمام عينَي شخص ثالث يمكن له أن يخونه أو يشي به.

وأخيرًا إذا افترضنا أن هناك رجلًا يرغب في ملاحقة شخص آخر في شوارع لندن، فلا توجد طريقة لفعل ذلك أفضل من أن يعمل سائق أجرة. كل هذه الاعتبارات قادتني إلى التأكد من أن جيفرسون هوب كان واحدًا من سائقي العاصمة.

وإذا كان حقًّا واحدًا منهم، ولا يوجد سبب يجعلنا نعتقد أنه لم يعد كذلك، فمن وجهة نظره سيكون أي تغيير مفاجئ مبررًا للفت الأنظار إليه، ولذلك فمن المحتمل أن يستمر في عمله لبعض الوقت على الأقل. ولم أجد سببًا يجعلني أفترض أنه كان يحمل اسمًا مستعارًا، فلماذا يقوم بتغيير اسمه في بلد لا يعرف أحد فيها اسمه الأصلي؟ ومن ثم قمت بتنظيم فرقتي من محققي متشردي الشوارع، وأرسلتهم على نحو منظم إلى كل مُلاَّك عربات الأجرة في لندن حتى توصلوا إلى الرجل الذي أردته. لا بد أنك ما زلت تذكر كيف أنجزوا المهمة بنجاح وسرعة فائقين. لكن مقتل ستانجرسون كان حادثًا غير متوقع على الإطلاق، وقد استطعت من خلاله أن أحصل على حبوب الدواء التي كنت قد خمنت وجودها حقًّا.

أترى؟ إن الأمر برمته عبارة عن سلسلة من الأحداث المنطقية دون توقف أو خطأ.

صحت قائلًا:

– هذا مذهل! إن جهودك تستحق أن يعرفها الناس، يجب أن تنشر سردًا للقضية، فإذا لم تفعل ذلك فسوف أفعله أنا.

أجابني قائلًا:

– يمكنك أن تفعل ما تريد أيها الطبيب. انظر إلى هذا.

أعطاني صحيفة اليوم التي كانت في يديه، وأشار إلى فقرة كانت تتعلق بالقضية التي نتحدث عنها، وقد جاء فيها:

«لقد خسر الجمهور متعة معرفة معلومات مثيرة بوفاة المدعو هوب المفاجئة، المشتبه به في قتل السيد إينوك دريبر والسيد جوزيف ستانجرسون. وهكذا فعلى الأرجح أن تفاصيل هذه القضية الغامضة لن تُعرف بعد الآن أبدًا. ومع هذا فقد علمنا من مصدر موثوق أن الجريمة وقعت نتيجة لعداء رومانسي قديم والذي كان الحب والمورمونية جزءًا منه. وعلى ما يبدو أن كلتا الضحيتين كانتا تنتميان في أيام شبابهما إلى جماعة قديسي الأيام الأخيرة، وأن المتَّهم المتوفى هوب كان أيضًا ينحدر من مدينة سولت ليك. ولو لم يكن للقضية أي تأثير آخر فقد أبرزت على الأقل كفاءة محققي الشرطة، وسوف تكون درسًا لكل الأجانب كي يقوموا بحل نزاعاتهم بحكمة في أوطانهم، وألا يحملوها معهم إلى الأراضي البريطانية. وإنه لسر معلن أن الفضل في إتمام الاعتقال بهذه الطريقة الذكية يعود بالكامل إلى مفتشي منطقة سكوتلاند يارد المعروفين وهما السيد ليستراد والسيد جريجسون. وتبين أنه قد وقع القبض على الرجل في مسكن السيد شيرلوك هولمز وهو محقق هاوٍ أظهر شيئًا من الموهبة والكفاءة في التحري الجنائي، ونأمل أنه قد يصل مع الوقت وبالعمل مع مثل هذين المحققين إلى قدر من مهارتهما. ومن المتوقع أن

تقدم شهادة تقدير من نوع ما لمحققَي الشرطة، كاعتراف مستحق بالخدمات والجهود المبذولة من جانبهما».

فصاح شيرلوك هولمز ضاحكًا:

– ألم أخبرك بذلك عندما بدأنا؟ هذه هي نتيجة كل دراستنا في اللون القرمزي: أن نجعل محققَي الشرطة يحصلان على شهادة تقدير!

أجبته قائلًا:

– لا عليك، لدي كل الحقائق مكتوبة في مذكراتي وسيعلمها عامة الناس، أما في الوقت الحالي فعليك أن تبتهج بالنجاح الذي حققته كما يقول المثل الروماني:

«بينما يطلق الجميع عليَّ صافرات الاستهجان في الخارج، أصفق لنفسي داخل بيتي وأنا أتأمل الجرة الملأى بالذهب».